سلسلة
عصور
مصرية

الدولة الأيوبية في مصر



تقديم: د. قاسم عبده قاسم

تأليف: جيهان ممدوح مأمون



السلسلة: عصور مصرية

العنوان: الدولة الأيوبية في مصر

تقديم: د. قاسم عبده قاسم

تأليف: جيهان ممدوح مأمون

إشراف عام: داليا محمد إبراهيم



الترقيم الدولي: 1 - 4105 - 14 - 977   رقم الإيداع: 2007/19299   الطبعة 1: فبراير 2009

الإدارة العامة: 21 شارع أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة
تليفون: 33466434 - 33472864 02
فاكس: 33462576 02

المركز الرئيسي: 80 المنطقة الصناعية الرابعة - 6 أكتوبر
تليفون: 38330287 - 38330289 02
فاكس: 38330296 02

مركز التوزيع: 18 شارع كامل صدقي - الفجالة - القاهرة
تليفون: 25909827 - 25908895 02
فاكس: 25903395 02

فرع الإسكندرية: 408 طريق الحرية - رشدي
تليفون: 5462090 03

فرع المنصورة: 13 شارع المستشفى الدولي التخصصي - متفرع من شارع عبد السلام عارف - مدينة السلام
تليفون: 2221866 050

خدمة العملاء: 16766
Website: www.nahdetmisr.com E-mail: publishing@nahdetmisr.com - customerservice@nahdetmisr.com

تقديم

كانت مصر في أواخر عصر الدولة الفاطمية أشبه بالرجل المريض الراقد على ضفاف النيل، ولم يتبق من عز الدولة الفاطمية ومجدها سوى ظل شاحب وذكريات غابرة، وكان المسلمون بقيادة عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود بعده قد حرروا إمارة الرها من الصليبيين في شمال بلاد الشام (وهي في تركيا حاليًا) وأخذوا يضغطون بشدة على الفرنج الصليبيين، وتطلع الصليبيون إلى الرجل المريض في الجنوب على أمل الاستيلاء على مصر لكي يضمنوا القوة التي تجعلهم ينتصرون على المسلمين، وجاءت الفرصة تسعى عندما نشب الصراع على كرسي الوزارة الفاطمية بين شاور وضرغام، وسعى شاور إلى بلاط نور الدين محمود في دمشق يطلب مساندته ويقدم الوعود الكثيرة، على حين جاء الصليبيون بقيادة «عموري» (أماليك الأول) ملك بيت المقدس الصليبي بحجة المطالبة بالجزية التي كان قد تم الاتفاق مع الفاطميين على أن يدفعوها للفرنج وبدأ السباق بين الطرفين نحو مصر، واستغرق الأمر ست جولات انتهت بوقوف المصريين إلى جانب قوات نور الدين محمود، وخروج الصليبيين خاسرين.

كان قائد الجيوش النورية «أسد الدين شيركوه»، وكان ابن أخيه الشاب الذي كان ضابطًا بجيشه هو يوسف صلاح الدين، الذي عرفه التاريخ باسم صلاح الدين، وفي خضم التطورات السياسية والعسكرية قتل «ضرغام»، وتنكر شاور لوعوده ثم انقلب ضد المسلمين، وقتله صلاح الدين بيده في أحد شوارع القاهرة. وتولى عمه أسد الدين شيركوه الوزارة ولم يلبث أن توفي، فاختار الخليفة الفاطمي العاضد بالله الشاب صلاح الدين ليكون وزيره، وبالتدريج أمسك صلاح الدين بزمام السلطة، ثم أعلن نهاية الخلافة الفاطمية عندما أقيمت الخطبة للعباسيين في مسجد عمرو بن العاص. ومات الخليفة الفاطمي الأخير دون أن يدري أنه الأخير، وقامت الدولة الأيوبية.

أهم ما في تاريخ الدولة الأيوبية هو صلاح الدين مؤسسها الذي تُنسب إليه؛ فقد كرس جهوده وحياته لتحرير القدس من الفرنج الصليبيين، وبعد أن قضى جيشه على زهرة الجيوش الصليبية في معركة حطين سنة ٥٨٣ هجرية/ ١١٨٧م، تقدم فيما يُشبه النزهة العسكرية لتحرير القدس واثنتين وخمسين مدينة وقلعة وحصنًا.

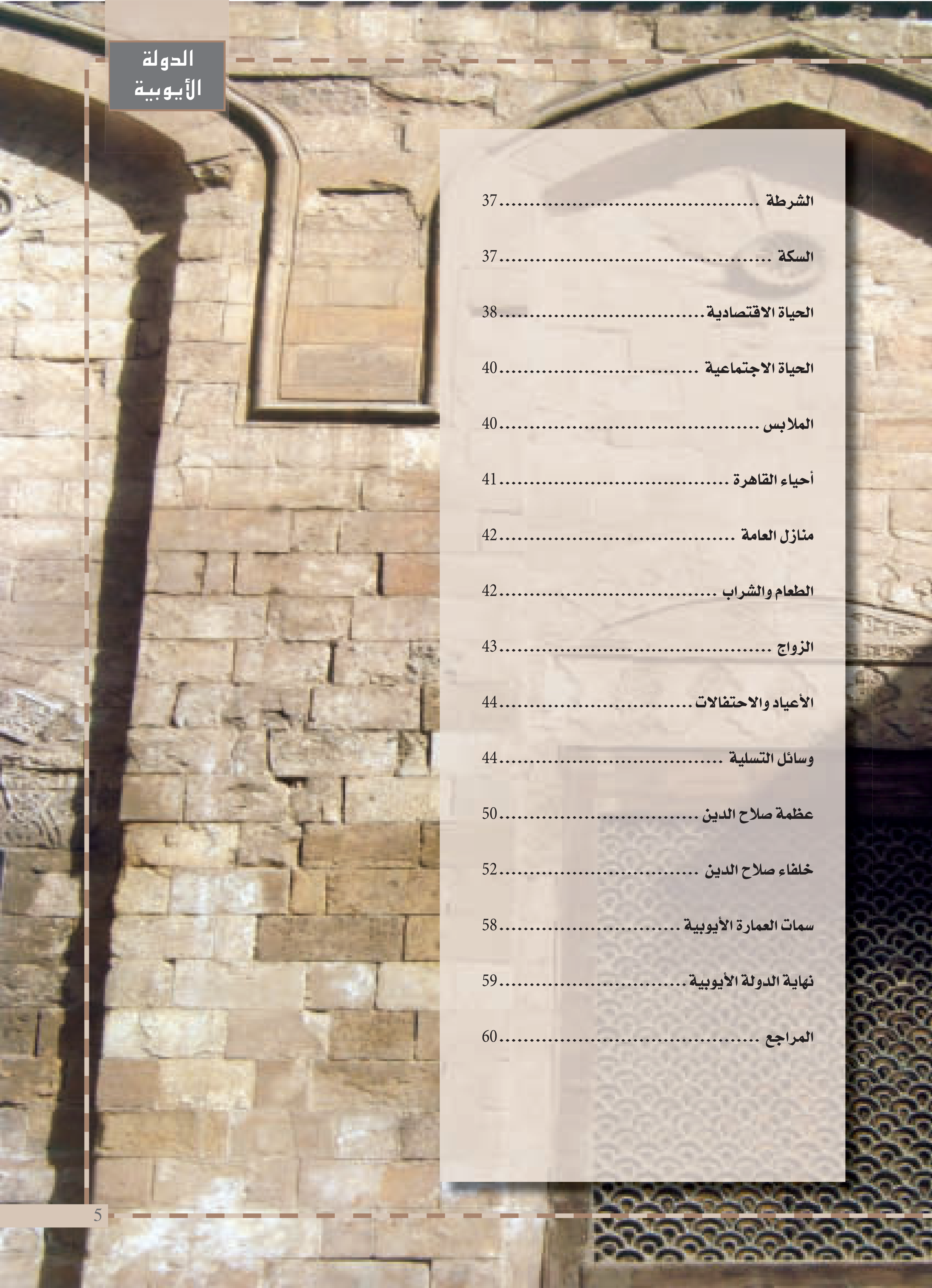
والكتاب الذي يحمل هذه القصة كتاب مدهش بديع في سرده المتنوع لهذه القصة ما بين الكلمة المكتوبة والصورة. وقد أجادت المؤلفة ومجموعة شركات نهضة مصر في تقديم قصة تحرير القدس في إطار بناء الدولة الأيوبية في جهد علمي وفني مشكور.

والله الموفق والمستعان

د. قاسم عبده قاسم
الجيزة – يناير 2009

المحتويات





صلاح الدين الأيوبي

تنتسب الدولة الأيوبية إلى مؤسسها (السلطان الملك الناصر أبو المظفر صلاح الدين بن يوسف بن الأمير نجم الدين أيوب بن شادي بن مروان الكردي)، يرجع أصل (صلاح الدين الأيوبي) إلى أكراد شمال العراق وقد ولد في مدينة تكريت المطلة على نهر دجلة (1138 م). وقد نشأ نشأة صالحة وتلقى العلوم الدينية المختلفة وحفظ القرآن الكريم منذ صغره. وعندما كبر اتصف بالإيمان والشجاعة والقوة والأخلاق الحسنة. كان أبو صلاح الدين الأيوبي (أيوب بن شادي) وعمه (أسد الدين شيركوه) يعملان في خدمة (الأتابك عماد الدين زنكي) حاكم الموصل وكانا مقربين إليه فكرمهما وجعل (أيوب بن شادى) أميرًا على بعلبك.[1]

كيف حضر صلاح الدين إلى مصر؟

كانت القاهرة عاصمة للدولة الفاطمية من (1171–909م) وبدأت الدولة الفاطمية في الانهيار نتيجة لضعف الخلفاء وهجمات الصليبيين والمؤامرات الكثيرة التي نشأت بين الوزراء. قام خلاف شديد بين وزيرين أحدهما يدعى شاور والآخر يدعى ضرغام، وزاد بينهما الخلاف، فاستعانا بقوى خارجية للتغلب على بعضهما البعض. فلجأ (شاور) إلى (الملك العادل نور الدين محمود زنكي)، بينما استعان (ضرغام) بالصليبيين بقيادة ملك القدس



(1) الخطط المقريزية؛ (ص378).

عموري الأول (أمالريك). رحب الصليبيون بدعوة (ضرغام) لأنهم كانوا يتمنون ضم مصر لملكهم منذ مدة طويلة ولم تتح لهم الفرصة المناسبة قبل ذلك. بينما سارع (نور الدين زنكي) بتلبية طلب (شاور) فبعث (صلاح الدين الأيوبي) إلى مصر بصحبة عمه (أسد الدين شيركوه) (1164 م) لصد خطر الصليبيين. انتهى الأمر بمقتل كل من (ضرغام وشاور) اللذين أخذا جزاءهما ونجح (شيركوه) و(صلاح الدين الأيوبي) في صد الصليبيين عن مصر.[1]

حريق شاور

أراد (شاور) أن يرد هجوم الصليبيين عن مدينة الفسطاط فقام بإحراقها حتى لا يدخلوها. وقد اشتعلت النيران بالفسطاط لمدة أربعة وخمسين يومًا دمرت فيها المدينة بالكامل وذهب أهلها إلى القاهرة ليسكنوا بها.[2]

الوزير صلاح الدين

بعد هذا النجاح العظيم في صد الصليبيين ولي الخليفة الفاطمي (العاضد بالله) (أسد الدين شيركوه) منصب الوزارة في مصر بدلا من (شاور)[3]. ولكن (شيركوه) توفي بعد شهرين فقط من ولايته على مصر فخلفه ابن أخيه (صلاح الدين الأيوبي) في الوزارة (1169م) وعمره (32) عامًا ولقب بالملك الناصر. قوي نفوذ (صلاح الدين الأيوبي) في مصر وضم جنود عمه (أسد الدين شيركوه) تحت سلطته، كما استعان بأسرته لمساعدته في الإدارة والجيش.

سقوط الخلافة الفاطمية

اتخذ صلاح الدين خطوات حاسمة لإسقاط الخلافة الفاطمية في مصر فمنع الخطبة في المسجد للفاطميين وأقام الخطبة للخليفة العباسي وبموت (العاضد بالله) آخر خليفة فاطمي أصبح صلاح الدين هو الحاكم الفعلي لمصر[4] ولكنه كان يحكمها باسم (نور الدين). ونصبه رسميًّا الخليفة العباسي في بغداد فأصبح حاكمًا لمصر (1171م). وجعل صلاح الدين اللون الأسود وهو رمز الخلافة العباسية لونًا رسميًّا للقضاة والخطباء. وخفقت الأعلام العباسية السوداء فوق القصور والمباني.

قصة

ويصف لنا (ابن إياس) تفاصيل منع الخطبة للفاطميين فيقول: «فلما كان يوم الجمعة، صعد شخص إلى المنبر قبل صلاة الجمعة ودعا إلى الخليفة (المستضيء بالله العباسي) خليفة بغداد. فلما صعد المنبر ودعا إلى المستضيء لم يتكلم أحد من الناس ولا أنكروا. فلما كان ثاني جمعة أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة أن يقطعوا اسم الخليفة (العاضد) من الخطبة وأن يدعوا باسم الخليفة (المستضيء بالله العباسي) ففعلوا ذلك.»[5]

(1) تحفة الناظرين (ص91).
(2) تاريخ الخطط المصرية (ص38).
(3) النجوم الزاهرة (ص213).
(4) بدائع الزهور (ص85).
(5) بدائع الزهور (ص85).

الخلاف مع نور الدين زنكي

ظل صلاح الدين يدين بالولاء والطاعة لسلطان بلاد الشام وزعيم بلاد المشرق العربي (نور الدين زنكي) حتى إن خطباء المساجد كانوا يدعون (لنور الدين) بعد الخليفة العباسي في خطبة الجمعة.
ولكن مع مرور الوقت ونتيجة لازدياد نفوذ وقوة صلاح الدين في مصر استاء نور الدين وبدأت العلاقات تتوتر بينهما، ولكن نور الدين محمود توفي قبل أن تصل إلى درجة خطيرة.

ولاية صلاح الدين على مصر

كان صلاح الدين قائدًا حربيًّا وزعيمًا سياسيًّا بارعًا، تولى حكم مصر وأقام دولة عسكرية في ظروف صعبة حيث كان العالم الإسلامي يتعرض لخطر الحروب الصليبية. وظل صلاح الدين طوال مدة حكمه في جهاد وحروب مع الصليبيين.
واستمر حكم الدولة الأيوبية من(1171م – 1250م) لمدة (79) عامًا. وحد صلاح الدين جيوش المسلمين في حروبه ضد الصليبيين وانتصر عليهم في معركة حطين واسترد بيت المقدس. كان صلاح الدين في أغلب الأوقات غائبًا عن مصر لانشغاله بحروبه مع الفرنج (الصليبيين) وقد توفي ودفن بدمشق وعمره سبعة وخمسون عامًا حافلة بالعطاء.



من هم السلاجقة؟

هم قبائل من الأتراك هاجروا من تركستان واستقروا في خراسان وبلاد ما وراء النهر. كان (عماد الدين زنكي) حاكم حلب والموصل أول زعماء السلاجقة الذين تصدوا للعدوان الصليبي وكانت رسالته توحيد المشرق الإسلامي ضد الصليبيين. فكون عماد الدين جيشًا قويًا وهزم الصليبيين واسترد إمارة الرها (1146م). وبعد موته تولى ابنه (نور الدين محمود زنكي) وأصبح سلطانًا على بلاد الشام واتخذ دمشق عاصمة لدولته (1154م) وجعلها مركزًا لمهاجمة الصليبيين. وقد تطلع نور الدين لفتح مصر حتى يحميها من الصليبيين الذين حاولوا الاستيلاء عليها مرات عديدة.

من ألقاب صلاح الدين

- الملك الناصر
- الملك المظفر
- صلاح الدنيا والدين
- محيي دولة أمير المؤمنين
- صفي الخلافة
- قسيم أمير المؤمنين
- خادم الحرمين الشريفين





سياسة صلاح الدين في مصر

تولى صلاح الدين حكم مصر (1169م) واتسمت سياسته بالعدل والتواضع وتقرب من المصريين وأحسن معاملتهم فأحبوه حبًّا شديدًا واعتبروه حاميًا للدين. قام صلاح الدين بكثير من الإصلاحات فخفف على الناس كل الضرائب والمكوس التي كانت مفروضة عليهم وكان يأخذ منهم فقط زكاة الأموال المفروضة وكان يتبع أحكام الدين في كل معاملاته.[1]

ما هي الدولة الفاطمية؟

هي عائلة تنسب نفسها إلى الإمام (علي بن أبي طالب) كرم الله وجهه وزوجته (فاطمه الزهراء) بنت سيدنا محمد ﷺ. وقد نشأت في شمال إفريقيا وحكمت مصر وتونس والشام من (909 – 1171م). وقد بنوا مدينة القاهرة واتخذوها عاصمة لحكمهم كما بنوا الجامع الأزهر لنشر أفكارهم الدينية.

(1) الخطط المقريزية، (ص379).

سياسة صلاح الدين في تدعيم المذهب السني

نشر حقيقة تعاليم دينهم، كما استبدل القضاة الشيعة بقضاة من السنة.[1] وقد أقام صلاح الدين وخلفاؤه أربعًا وعشرين مدرسة لدراسة الفقة والحديث بالقاهرة مثل (المدرسة الشافعية) لتدريس المذهب الشافعي و(المدرسة القمحية) لتدريس المذهب المالكي، كما أنشأ أول خانقاه للصوفية في مصر. وقد اختار المذهب الشافعي ليكون المذهب الأول بمصر لما كان (للإمام الشافعى) من منزلة خاصة في نفوس المصريين ولوجود قبره بمصر. وبذل صلاح الدين مجهودًا كبيرًا للقضاء على البدع والخرافات التي انتشرت بين العامة في العصر الفاطمي وأعاد الناس تدريجيًّا إلى الطريق السليم.[2]

طرد الفاطميين

عندما تولى صلاح الدين حكم مصر أخرج (18,000) شخصًا من القصور الفاطمية وأقام الجنود معسكراتهم في هذه القصور فسكن الجنود الأتراك في القصر الغربي الصغير وأقام صلاح الدين في دار الوزارة في القصر الشرقي الكبير وأطلقوا عليها (الدار السلطانية). وبعد تحول سلاطين الأيوبيين إلى الإقامة في القلعة تحولت دار الوزارة لمكان مخصص لإقامة كبار الضيوف والشخصيات العامة.

مكتبة الفاطميين

تسلم (القاضي الفاضل) (120,000) كتاب كانت في خزانة الكتب المملوكة للفاطميين. أمر القاضي الفاضل بحرق كل الكتب التي تدعو إلى البدع وباع كل ما تبقى وضم ثمنه لخزانة الدولة.

خزائن الفاطميين

فتح الوزير (بهاء الدين قراقوش الأسدي) خزائن القصور الفاطمية بأمر من صلاح الدين. حصر قراقوش كل الكنوز والتحف وباعها ووضع النقود في خزانة الدولة. كما قام بإخرج أولاد الخليفة والأمراء الفاطميين وكان عددهم 152 شخصًا ففصل الرجال عن النساء ونفاهم إلى أماكن متفرقة وأعتق العبيد والجواري.[3]

الأزهر

قضى الأيوبيون على كل أثر ديني لمذهب الفاطميين الشيعي، وبطلت صلاة الجمعة في الجامع الأزهر نحو مائة عام. ولكن ظل الأزهر في العصر الأيوبي محتفظًا بمكانته كمعهد للدراسة الدينية، ثم أصبح يدرس فيه المذهب السني.

صلاح الدين في مصر

حكم صلاح الدين (24) عامًا، مكث منها في مصر ثمانية أعوام فقط لانشغاله بحروبه مع الصليبيين. غادر صلاح الدين القاهرة (1182 م) لآخر مرة ولم يعد إليها حتى مات (1193م) ودفن في القدس.



(1) تحفة الناظرين (ص 92).
(2) المرجع السابق (ص92).
(3) بدائع الزهور (ص86).

الفتن التي قامت ضد صلاح الدين

ثوره عمارة اليمني

لقد اتفق رجل يدعى (عمارة اليمنى) وكان شاعرًا للفاطميين اتفق مع الصليبيين على مهاجمة الشواطئ المصرية لخلع صلاح الدين وإعادة الدولة الفاطمية للحكم. فأرسل الصليبيون بالاتفاق مع نورمان صقلية أسطولاً مكونًا من (282) سفينة (1174م) وحاصروا الإسكندرية لمدة ثلاثة أيام. قامت حامية الإسكندرية بصد الهجوم كما بعث (صلاح الدين) بمدد من جيوشه ففك قائد جيوش الصليبيين نورماندي ملك صقلية الحصار قبل وصول المدد. وبعد ذلك قضى (صلاح الدين) على زعماء الفتنة و قتل (عمارة اليمنى) ونفى الباقين إلى الصعيد.

ثورة مؤتمن الخلافة

حدثت مؤامرة ضد (صلاح الدين) يدبرها زعيم الجنود الأفارقة السود في الجيش وكان يدعى (مؤتمن الخلافة جوهر). كان عدد الجنود السود الذين كانوا مشاة في الجيش الفاطمي يزيد على (50,000) جندي فطمع مؤتمن في الخلافة بدلًا من صلاح الدين وأرسل رسالة يستنجد (بعموري الأول) ملك القدس. ولكن جنود (صلاح الدين) استطاعوا القبض على حامل الرسالة وبعث (صلاح الدين) بجيوشه فهزمت جنود المشاة السود هزيمة منكرة وقضى على الفتنة.

العاصمة

شيد (صلاح الدين) قلعة الجبل (1176م) أمام جبل المقطم وبنى سورًا يحيط بالقاهرة وبالقلعة وحفر خندقًا حولها لحمايتها. وضع صلاح الدين أساس القاهرة الحالية بعد أن ضم العواصم الأربع القديمة (الفسطاط والعسكر والقطائع والقاهرة) في مدينة واسعة وكان يطلق عليها أحيانًا مصر وأحيانًا أخرى الفسطاط.

ولاية صلاح الدين على الشام

قامت فتن شديدة في الشام بعد موت (نور الدين زنكي) (1174م) وتولى ابنه الطفل (إسماعيل) الحكم فتقاتل الأمراء على العرش. ذهب صلاح الدين إلى الشام ليوحد الصف الإسلامي بتأييد من الخليفة العباسي وهزم الزنكيين واستولى على حمص وحماة وبعلبك وعقد اتفاقًا مع الموصل، اعترفت بسلطته، وأخذ السلطنة من ابن نور الدين (إسماعيل) (1175م) وعين (نور الدين شاه) نائبًا عنه في الشام ثم رجع إلى مصر.



منشآت صلاح الدين

كثرت المنشآت الدينية في عهد صلاح الدين مثل الخانقاوات والمدارس والمباني الحربية مثل القلاع والأسوار المحصنة. كما قام صلاح الدين ببناء القناطر والحمامات والأضرحة ومن أهم الآثار التي تركها قلعة الجبل التي خلدت اسمه على مر العصور.

قلعة الجبل

بنى صلاح الدين (قلعة الجبل) على بروز صخري ارتفاعه (75 م) غرب جبل المقطم في مكان كان يعرف بقبة الهواء (1176م). وقد شيدت القلعة لتكون مركزًا للحكومة ومقرًا لإقامة السلطان وحاشيته[1]. ولتكون أيضًا حصنًا حربيًّا لتجنب الأخطار الخارجية المتمثلة في الفرنج والأخطارالداخلية المتمثلة في أنصار الفاطميين. كلف صلاح الدين وزيره (بهاء الدين قراقوش الأسدي) ببناء القلعة فقام قراقوش بهدم مجموعة كبيرة من الأهرامات الصغيرة الموجودة في منطقة الجيزة لاستخدام أحجارها للبناء كما استخدم أيضًا الأحجار الجيرية المتوافرة في جبل المقطم[2]. تبلغ مساحة القلعة والأراضي المحيطة بها 32 فدانًا ويبلغ طول أسوار وأبراج القلعة (1170) مترًا. وقد انتهى بناء القلعة (1184م) بعد ثلاثين سنة في عصر (الكامل) ابن أخي صلاح الدين.



النص الإنشائي لقلعة الجبل

أسوار القلعة

تعتبر أسوار قلعة (صلاح الدين الأيوبي) الأسوار الثالثة بعد سور (جوهر الصقلي) وسور (بدر الجمالي) في العصر الفاطمي. شيد الأمير (بهاء الدين قراقوش) سورًا من الحجارة ليدور حول القاهرة ومصر والقلعة باعتباره سورًا واحدًا مكملًا للأسوار القديمة وحفر خندق حوله[3]، و لم يكتمل بناء السور في حياة صلاح الدين وإنما أكمله خلفاؤه من بعده. تحتوي أسوار القلعة على متاريس ولها شرفات مستديرة يطلقون منها النار على الأعداء وبها وسائل للدفاع منها السقاطات والشرفات بارزة. ومات (صلاح الدين) قبل أن يتم بناء القلعة ولم يسكن بها إطلاقًا.

النص التأسيسي

موجود فوق باب المدرج غرب السور الشمالي وهو عبارة عن لوحة رخامية مكتوب فوقها:

بسم الله الرحمن الرحيم

أمر بإنشاء هذه القلعة الباهرة المجاورة محروسة القاهرة مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين أبو المظفر يوسف بن أيوب على يد أمير مملكته ومعين دولته قراقوش بن عبد الله الملكي في سنة تسع وسبعين وخمسمائة.[3]

(1) بدائع الزهور، (ص87).

(2) أسوار وقلعة صلاح الدين، (ص59).

(3) المرجع السابق (ص67).

كيف اختار صلاح الدين موقع القلعة؟

تروي قصة أنه عندما أراد صلاح الدين بناء القلعة قام بوضع قطع من اللحم ووزعها في مناطق مختلفة من العاصمة فظلت القطعة التي تم تعليقها عند القلعة غير تالفة لمدة أطول، فقرر صلاح الدين بناء القلعة في هذا الموضع من الناحية الصحية. فبناها على منحدر صخري أمام جبل المقطم ويعتبر موقعها حصينًا وقريبًا من القاهرة.[1]

النسر

يوجد أعلى أبراج القلعة نسر منحوت بشكل بارز على سطح صورة مستطيلة مثبتة في الحائط وهو ينسب غالبًا إلى صلاح الدين وهو يرمز إلى القوة.



(1) أسوار وقلعة صلاح الدين، (ص55).

أبواب القلعة

يوجد لسور (صلاح الدين الأيوبي) عدة أبواب على طول السور منها:

باب مصر

بناه (بهاء الدين قراقوش) وكان يوجد به برجان وقد تم هدمه في العصر المملوكي.

الباب الجديد في قلعة الجبل

باب الصفا

كان الباب الرئيسي الذي يؤدي إلى الفسطاط وكانت تخرج منه القوافل والعساكر. وكان له برجان متقابلان وقد هدم أيضًا في العصر المملوكي.

باب الإمام

ويعرف بباب القرافة بناه (صلاح الدين الأيوبي) وله مدخل منكسر. وهو الباب الشرقي. ويسمى أيضًا بباب الجبل لأنه يطل على المقابر المطلة على جبل المقطم وكان قليل الاستخدام لأن الوصول إليه كان صعبًا.

أبراج القلعة

بنى (صلاح الدين) و(الملك العادل) أبراجًا كبيرة للقلعة استخدمت كمساكن لمئات الجنود.

برج المعز:

يقع في نهاية السور الشمالي ويعرف بقلعة قراقوش، هدم في عصر المماليك وأقيم مكانه بستان.

برج قلعة يازكوج:

كان (يازكوج) مملوكًا (لأسد الدين شيركوه) وقائدًا على المماليك. كان البرج يقع على شاطئ النيل عند جنوب غرب الأسوار وقد زال تمامًا الآن.

برج المظفر:

يقع شمال شرقي السور وهو برج ضخم يتكون من ثلاثة طوابق وما زال باقيًا حتى اليوم.الطابق الأرضي فيطل ويفتح على الشارع وتوجد به فتحات للمزاغل.

برج درب المحروق:

ارتفاعة 15مترًا وقطره 16مترًا وكان يقع على السور الشرقي. وكان مكونًا من ثلاثة طوابق وتوجد به فتحات للمزاغل.

برج المقطم:

برج المقطم مواجه لجبل المقطم في الناحية الجنوبية ومازال قائمًا حتى اليوم.

برج الصفة:

يلي برج المقطم وقد بناه (الملك العادل) في الناحية الجنوبية.



برج كركلان:

هو برج مربع ارتفاعه (20،60) متر أنشأه الملك العادل في السور الجنوبي.

برج المطار:

كان مستخدمًا لتربية الحمام الزاجل الذي كان وسيلة اتصال بين السلطان وبلاد الشام ولايزال قائمًا حتى اليوم.

برج المبلط:

في الركن الجنوبي الشرقي من القلعة وهو مكون من طابقين.

برج الرملة:

بناه (صلاح الدين الأيوبي)، وهو مكون من طابقين ووسعه العادل وهو من أعظم أبراج القلعة ويقع في السور الشمالي.

برج الحداد:

هو من أضخم أبواب القلعة بناه صلاح الدين الأيوبي في السور الشمالي وهو نصف مستدير وأضاف إليه العادل إضافات كثيرة. يوجد به أربع سقاطات لإلقاء المواد الملتهبة والزيت المغلي كوسيلة من وسائل الدفاع.

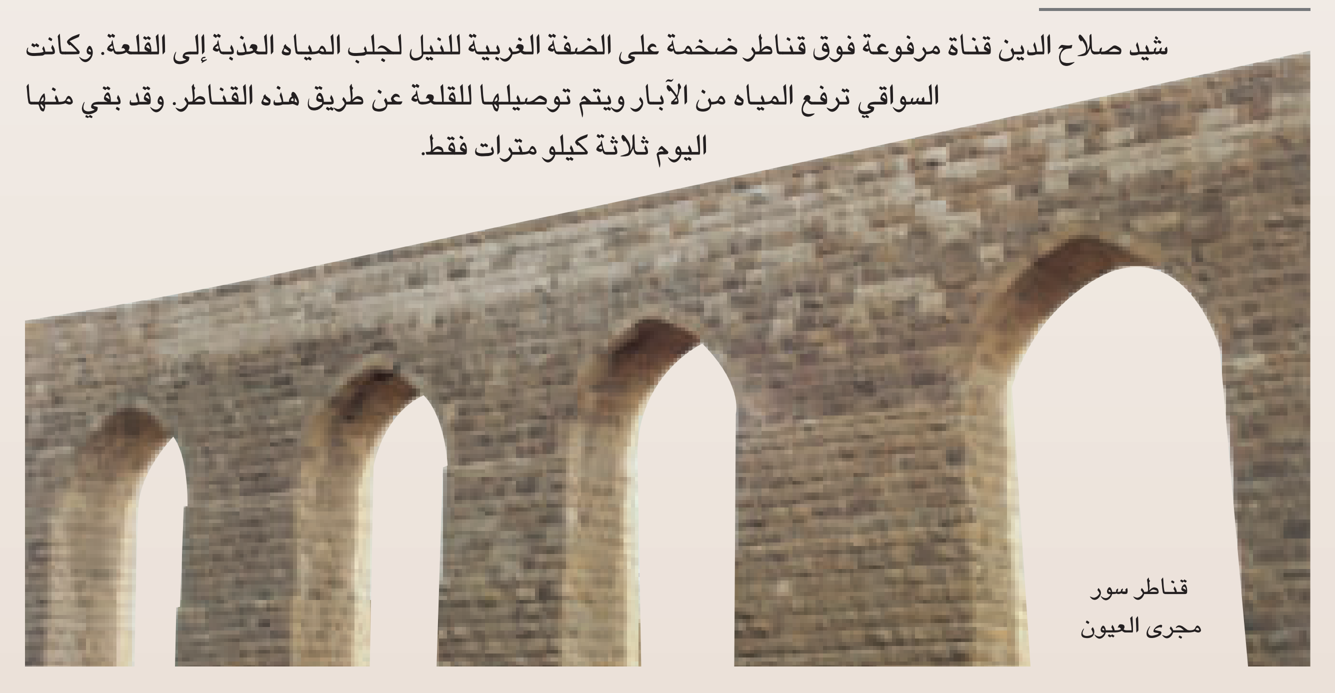
إضافات الكامل للقلعة: استكمل (الملك الكامل بن العادل الأيوبي) بناء القلعة لتكون مقرًا لحكمة وحصنها وبنى بها القصور السلطانية. وقد أقام بها هو وأسرته كما أضاف إليها برج الصفة وبرج كركلان وبرج الطرفة.

البئر الحلزوني (بئر يوسف)

حفره الوزير (قراقوش) بتكليف من القائد صلاح الدين لتزويد القلعة بالمياه وهو من المنشآت الهامة. هو بئر مربع الشكل يحتوي على ثلاثمائة درجة شكلها حلزوني، أما عمقه فيصل إلى (90) مترًا. ترفع إليه المياه بواسطة ساقية لها أوعية فخارية تقوم بنقل المياه إلى خزان يقع في وسط البئر، ثم ترفع منه المياه إلى أعلى بواسطة ساقية أخرى وكانت الأبقار تحرك هذه السواقي.

سور مجرى العيون

شيد صلاح الدين قناة مرفوعة فوق قناطر ضخمة على الضفة الغربية للنيل لجلب المياه العذبة إلى القلعة. وكانت السواقي ترفع المياه من الآبار ويتم توصيلها للقلعة عن طريق هذه القناطر. وقد بقي منها اليوم ثلاثة كيلو مترات فقط.



قناطر سور مجرى العيون

إضافات القلعة بعد العصرالأيوبي

لم يبق من منشآت (صلاح الدين) في القلعة سوى بعض أجزاء من الأسوار والأبواب والأبراج. وأضيف إليها العديد من المباني على مر العصور وهذه بعضها:

إضافات في عصر المماليك:

- أنشأ (الظاهر بيبرس) برج السباع وقصرًا.
- أنشأ (الناصر محمد بن قلاوون):
  - مسجده بقبته الخضراء المميزة.
  - القصر الأبلق.
  - برج مربع.
- وأقام السلطان (الغوري) إيوانًا كبيرًا.

إضافات في العصر العثماني:

- جامع سليمان باشا والي مصر.
- باب العزب

إضافات في عصر محمد علي:

- جامع محمد علي.
- قصر الجوهرة .
- دار الضرب (لسك النقود).
- دار المحفوظات (لحفظ الوثائق).



مسجد محمد علي والذي نشأ
داخل قلعة صلاح الدين

البيمارستان

أقام صلاح الدين (1182 م) بيمارستانًا (بيمار «معناها مريض» – ستان «معناها مكان») أي مستشفى في قاعة من قاعات القصر الشرقي الفاطمي وخصص (220) دينارًا شهريًا للإنفاق عليه وزوده بالحبوب والأطباء والعاملين والجراحين والممرضين وكان يوجد به:

- خزانة عقاقير (دواء).
- أسرَّة للمرضى.
- مكان مخصص للنساء.
- غرف مغطاة بشبابيك حديد لأصحاب الأمراض النفسية والعصبية (محابس المجانين).



نقش على المدرسة الصالحية

وصف البيمارستان

وقد زار الرحالة (ابن جبير) البيمارستان (1183م) بعد افتتاحه و قدم لنا وصفًا دقيقًا له: «ومما شاهدناه أيضًا من مفاخر هذا السلطان البيمارستان الذي بمدينة القاهرة وهو قصر من القصور الرائقة حسنا واحتسابًا، وعيَّن قيمًا من أهل المعرفة ووضع لديه خزائن العقاقير ومكنه من استعمال الأشربة وإقامتها على اختلاف أنواعها. ووضعت في مقاصر ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسي وبين يدي هذا القيم (أي المدير) خدمة يتكفلون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشية فيقابلون من الأغذية والأشربة بما يليق بهم.»[1]

الخانقاه

الخانقاه هي مسكن للصوفية وخانقاه تعني (بيت باللغة الفارسية) وكان لكل خانقاه شيخ خاص بها يلقب (بشيخ الشيوخ). كان الغرض من بناء الخانقاوات اجتذاب الناس إلى المذهب السني ونشر علوم السنة. وكان يقيم بالخانقاه الصوفية المنقطعون للعلم والعبادة. والخانقاه عبارة عن صحن مكشوف له أربعة إيوانات وفوقه غرف صغيرة ليعيش فيها الصوفية ويلحق بها مطبخ لإعداد الطعام لهم وحمام.

الصوفية

استقدم صلاح الدين (300) من المتصوفة الزاهدين المعروفين بالتقوى والصلاح وأقاموا في دار حولها إلى خانقاه خاصة بهم ووفر لهم وسائل الحياة. والمتصوفة هم الزاهدون المتفرغون للعبادة وكانوا يلبسون الملابس الخشنة المصنوعة من الصوف ولذلك أطلق عليهم اسم (صوفية أو متصوفة) وكان لهم أفكارهم الخاصة بهم.

خانقاه سعيد السعداء (1173م)

الخانقاه هي كلمة فارسية معناها دار، وكانت الخانقاوات أماكن مخصصة لإقامة الصوفية. وهذه الخانقاه لها شهرة تاريخية كبرى باعتبارها أول خانقاه أقيمت في مصر. كانت خانقاه (سعيد السعداء) في العصر الفاطمي دار (عنبر بن ميسر) ولقبه (سعيد السعداء) وكان أحد موالي الخليفة المستنصر وقد قتل وصلب على باب زويلة. وفي العصر الأيوبي قام (الناصر صلاح الدين) بتعديلات على هذه الدار وجعلها مقرًا للصوفية وهي تعتبر أول خانقاه أقيمت في مصر. الخانقاه مكونة من مدخل خلفه صحن مكشوف وحوله أربعة إيوانات، أما الأرض فمفروشة بالبلاط وكان ملحقًا بها مبان وحمام ولم يتبق منها شيء و ملحق بالخانقاه ضريح الأمير (علاء الدين البندقدار الصالحي النجمي). كان يقيم بالخانقاه (300) صوفي وهي لا تزال قائمة حتى اليوم ولكن فقدت الكثير من معالمها الأصلية.[2]

---

(1) القاهرة تاريخ حاضره (ص91).

(2) معاهد تزكية النفوس، (ص81).

الصوفية / المتصوفة

كان الصوفية المقيمون بخانقاه (سعيد السعداء) يخرجون كل يوم جمعة من الخانقاه يتقدمهم شيخهم ويصلون إلى جامع الحاكم بأمر الله الذي كانت تقام فيه خطبة يوم الجمعة. وكانوا يصلون الجمعة هناك ثم يختمون القرآن وبعد ذلك يقوم أحدهم بالدعاء للسلطان (صلاح الدين الأيوبي) ثم يعودون بنفس الموكب الذي ذهبوا به ويقف أهل القاهرة على الجانبين لمشاهدتهم. كان للصوفيين مكانة عالية في العصر الأيوبي وكان يتم إنفاق الكثير من الأموال من أجل العناية بمنشآتهم.[1]

الرباط

أنشئت الربط في العصر الأيوبي وهي مبان لإ يواء أهل الله المتبعين لطريقة صوفية وكانت تتبع نفس نظام الخوانق. كلمة رباط معناها المترابطون والمتفقون على غاية واحدة وهي اتباع طريق الله. وانتشرت الأربطة في مصر مثل الرباط الصحبي ورباط فخر الدين بن قزل.

الزوايا

الزاوية هي مبنى صغير يسكنه شيخ من شيوخ الصوفية. يقوم الشيخ بتدريس علوم الفقه والحديث وتنفق الأوقاف الخيرية على هذه المنشأة وتوفر للمقيمين فيها الطعام والشراب.

ضريح الإمام الشافعي

أنشأ صلاح الدين ضريحًا (للإمام الشافعي) وأنشأ التابوت الخشبي المتقن الصنع الذي يغطي المقبرة وهو مصنوع من خشب الساج الهندي ومزخرف بأشكال هندسية وكتابات كوفية غاية في الإبداع. ودفن بجوار الإمام الشافعي الأميرة (شمس) زوجة صلاح الدين و(الملك العزيز عثمان) ابن صلاح الدين. أضاف الملك الكامل للضريح قبته الكبيرة التي ضمت قبر (الإمام الشافعى) مع أفراد الأسرة الأيوبية. وهذه القبة قطعة فنية بديعة بها نقوش وزخارف ويوجد فوقها مركب صغير من النحاس لإطعام الطيور بالحبوب وهي تعتبر من أجمل القباب التي شيدت بمصر.



قبة ضريح الإمام الشافعي

(1) الخطط المقريزية، (ص274).

الإمام الشافعي

هو الإمام (محمد بن إدريس) ولد بمكة (820 م)، وهو مؤسس أحد المذاهب الأربعة، وقد حفظ القرآن وعمره سبع سنوات. وأذن له بالإفتاء وعمره (15) عامًا وانتقل إلى بغداد ثم استقر بمصر. وقد ألف كتبًا كثيرة مثل (كتاب الأم والأمالي الكبرى والرسالة في علوم الدين). وكان يقوم بالتدريس في جامع (عمرو بن العاص)، وكان له مكانة عالية في نفوس المصريين وعندما مات دفن بها.

ميدان الرميلة

كان هذا الميدان تحت أسوار القلعة، وقد اهتم به السلطان الملك الكامل الأيوبي وحفر ثلاث برك بجانبه، وأجرى الماء إليه، كما بنى سورًا حوله، وقد زرع به (الملك الصالح نجم الدين أيوب) الأشجار وجدد الساقية التي كانت توجد به.

الإسطبل

اهتم الأيوبيون بتربية الخيول التي نالت منهم الرعاية الفائقة لأهميتها في حروبهم ضد الصليبيين. وكانت الإصطبلات تقع أسفل القصر السلطانى.

قلعة الروضة

أنشأها الملك (الصالح نجم الدين أيوب) واتخذها مقرًا لإقامته وفيها ثكنات مماليكه وكانت من أعظم المنشآت التي أقيمت في مصر[1] وللأسف الشديد أمر بهدمها السلطان المملوكي (قلاوون). وكل ما تبقى منها اليوم هو أربعة أعمدة كبيرة وضعها السلطان قلاوون في ضريحه.

التعليم

الكتّاب (واسمه المكتب)

كانت مهمة الكتّاب تعليم الأطفال القرآن الكريم والقراءة والكتابة. كانوا يطلقون على المعلم لقب (مؤدب)، وكانوا يشترطون أن يكون حسن الخلق، متزوجًا ومتدينًا. كان المؤدب يعلم الأطفال السلوك القويم وكان يستخدم سياسة العقاب التي قد تصل أحيانًا إلى الضرب عند الضرورة وكان يساعده عريف (مساعد للمعلم).

كان الأطفال يستخدمون ألواحًا للكتابة وكان عدد التلاميذ في الفصل الواحد يصل إلى حوالى(35) طفلًا. كانت الدراسة تبدأ من أذان الفجر حتى أذان العصر لمدة خمسة أيام في الأسبوع وكان يصرف للأيتام والمؤدب كسوة (ملابس) الشتاء والصيف.

وعندما يختم أحد الأطفال القرآن أي يتم حفظه كان يقام احتفال كبير تصنع فيه الحلوى المختلفة.



مئذنة المدرسة الصالحية نسبة إلى الملك الصالح، وكانت عبارة عن مسجد ومدرسة لتدريس المذاهب الفقهية

(1) بدائع الزهور، (ص102).



إيوان المدرسة الكاملية نسبة إلى الملك الكامل

مكاتب الأيتام

تم إنشاء الكثير من الكتاتيب لتعليم الأيتام وأولاد الفقراء غير القادرين. فكانوا يوفرون لهم التعليم المجاني ويقومون بإعطائهم مبلغًا معينًا من المال شهريًّا ورطلين من الخبز يوميًّا.

المدارس

اهتم صلاح الدين ببناء المدارس فأنشأ خمس مدارس وكانت المدرسة عبارة عن بناء يواجه القبلة تعلوه قبة تحتها محراب.

وكان يوجد في وسط المدرسة صحن مربع وفي كل جانب من جوانبه الأربعة إيوان. كان المدرس يجلس وحوله الطلبة ويبدأ بتلاوة آيات من القرآن ثم يقوم بشرح الدرس. كان التعليم مجانيًّا وكان الطلبة يقيمون في مساكن ملحقة بالمدرسة. اهتم سلاطين الأيوبيين بإنشاء المدارس فبلغ عدد مدارس مصر(71) مدرسة تدرس علوم الدين والفقه والحديث واللغة العربية، كما اهتم الأيوبيون بإنشاء المكتبات في المدارس والمساجد.

المدرسة الناصرية (للمذهب الشافعي)

أنشأ صلاح الدين المدرسة الناصرية (1176م) بجوار ضريح أي مقبرة الإمام الشافعي لتدريس المذهب الشافعي الذي يتبعه صلاح الدين. كانت مدرسة فخمة وكانت تعد من أكبر المدارس التي بنيت في مصر وأُلحقت بها مرافق كثيرة مثل الحمامات ومساكن للطلبة وللمدرسين. كان مرتب شيخ المدرسة (الشيخ نجم الدين) يصل إلى أربعين دينارًا وقد أوقف عليها صلاح الدين الأراضي والعقارات لدفع رواتب المدرسين والطلبة.

المدرسة القمحية (للمذهب المالكي)

بناها صلاح الدين وهو وزير للخليفة الفاطمي (العاضد بالله). كانت تقع بجوار جامع (عمرو بن العاص) ويطلق عليها القمحية لأنه كان يتم توزيع قمح على المدرسين والطلبة بدلًا من النقود. كان يوجد بالمدرسة أربعة أواوين أي زوايا، وكان كل مدرس يجلس هو وطلبته في إيوان.

المدرسة السيوفية

بناها (صلاح الدين الأيوبي) لتكون أول مدرسة لتدريس المذهب الحنفي في مصر (1176م) وعين الشيخ (مجد الدين محمد الجبتي) ليدرس بها وجعل له راتبًا يصل إلى أحد عشر دينار شهريًّا وأوقف على المدرسة الأوقاف. وقد أطلق على المدرسة اسم السيوفية لوجود سوق السيوفيين خارج أبوابها.

(دار الحديث) المدرسة الكاملية

أنشأها (الملك الكامل بن الملك العادل بن أيوب) وأوقفها على علماء الحديث فكانت أول مدرسة متخصصة لتدريس علم الحديث (1224م) وعين بها أساتذة الحديث النبوي والفقهاء ثم أصبحت تدرس المذهب الشافعي. كان الملك (الكامل الأيوبي) محبًّا للعلم والعلماء ويحب مجالستهم فأصبحت مصر في عهده مركزًا لتجمع العلماء والفقهاء وكان يكرمهم ويوزع عليهم الأموال ولا تزال أجزاء من هذه المدرسة قائمة حتى اليوم.

المدرسة الصالحية

بناها (الملك الصالح نجم الدين أيوب) (1243م) وكانت أول مدرسة في مصر تدرس المذاهب الفقهية الأربعة (الشافعية، المالكية، الحنفية والحنبلية) وكانت أول مدرسة تقام للمذهب الحنبلي في مصر. كان يقال لها تاج المدارس وكانت أعظم مدارس الدنيا على الإطلاق. كانت المدرسة مكونة من بناءين يتوسطهما صحن وكل بناء مكون من إيوانين وكان كل إيوان مخصصًا لمذهب من المذاهب الأربعة. وقد ألحق بها حمامات ومساكن خاصة للمدرسين وللطلبة ولم يبق منها اليوم غير مئذنتها المشيدة بالقرميد فوق المدخل والإيوان الغربي. ومازالت الواجهة باقية وهي محتفظة بالزخارف ذات الأشكال المتنوعة. أقامت زوجة الملك الصالح (شجر الدر) ضريحًا لزوجها المتوفى ملاصقًا للمدرسة وهو أول ظهور لمقبرة تلحق بمدرسة، وقد انتشر هذا النموذج كثيرًا بعد ذلك. ويوجد بالضريح تابوت خشبي متقن الصنع و محراب من الرخام وشبابيك نحاسية مفرغة.



الإسكندرية

زار صلاح الدين مدينة الإسكندرية (1181م) وأنشأ بها:
- مارستانًا - دارًا للضرب - مدرسة - جامعًا.

ضريح شجر الدر

أمرت بإنشائه الملكة (شجر الدر) ودفنت به بعد موتها. محراب الضريح هو أول نموذج يحتوي على الفسيفساء في مصر وبه رسم لشجرة ذات أوراق جميلة وهو يقع بشارع الخليفة اليوم.

نظام الحكم

- كان السلطان على رأس الدولة
- نائب السلطان: ابتكر هذه الوظيفة (صلاح الدين الأيوبي) لكثرة تغيبه عن مصر فكان يعين شخصًا أمينًا لينوب عنه أثناء غيابه.
- الوزير: لم يكن للوزراء نفوذ كبير في العصر الأيوبي
- وأحيانًا كثيرة كان يترك منصب الوزير شاغرًا.
- الحاجب: كان يقوم بإدخال الناس على السلطان.
- الأستادار: كان يشرف على إدارة بيوت السلطان.
- الدوادار: كان يبلغ السلطان بكل الأحداث التي تقع في البلاد.

ويحصل على توقيع السلطان على المراسيم.
- ناظر الخاص: كان يرعى الشئون المالية للسلطان.

الحكم الوراثي

مات (صلاح الدين) بدون أن يضع نظامًا لولاية العهد فقام صراع شديد بين أولاده وإخوته وانتهى الأمر لأخيه العادل فأصبح سلطانًا على مصر والشام (1200م) وتولى أبناؤه من بعده.

الدواوين

كان بمصر عدد من الدواوين وكان لكل ديوان ناظر -أي رئيس-، وميزانية خاصة وعدد من الموظفين.

ديوان الجيش: لمراقبة وتنظيم الجيوش وحفظ سجلات بأسماء الجنود والأسلحة.

ديوان الإنشاء: للرد على رسائل السلطان.

ديوان بيت المال: للإشراف على الضرائب والمكوس والزكاة.

النظام الإقطاعي

نشأ النظام الإقطاعي في الدولة الأيوبية بسبب الحاجة إلى المال لدفع نفقات المحاربين. كان نظام الإقطاع يقوم على توزيع الأراضي في البلاد المفتوحة على الأمراء والجند مقابل ما يقدمونه من خدمات عسكرية.

النشاط العلمي

شجع الأيوبيون العلماء ووفروا لهم الرواتب والمساكن ليتفرغوا للعلم وأصبحت مصر مقرًّا للعلماء يأتون إليها من المشرق ومن المغرب.

هجرة العلماء إلى مصر

جاء العلماء إلى مصر لإعادة نشر المذهب السني ولتعريف المصريين بأصول دينهم. وكان صلاح الدين يحب مجالسة العلماء والفقهاء ويمنحهم مكافآت كبيرة وأموالاً كثيرة ومن هؤلاء العلماء:

- عزالدين بن عبد السلام – فقيهًا
- عبد الرحيم القنائي – صوفيًّا
- ابن الساعاتي – أديبًا
- ابن مطروح – شاعرًا

الشاطبي

هو العالم (محمد أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي الشاطبي) نسبة إلى بلدة شاطبة من بلاد الأندلس ولد في بلنسة (1143م) كان فقيهًا وبرع في علم الحديث والنحو والأدب. اشتهر بكتاب (رحلة ابن جبير) سجل به مشاهداته للبلدان المختلفة التي زارها ما بين عام (85-1182م). وقد توفي (1217م) ودفن بالإسكندرية وهناك حي مشهور يطلق عليه اسمه اليوم في مدينة الإسكندرية.



قصة

روي عن قراقوش أن امرأة مات زوجها فذهبت إليه ترجوه أن يمنحها بعض المال لشراء كفن له فأجابها أن مال الزكاة لهذا العام قد نفد وطلب منها أن تأتي في العام القادم وسيعطيها كفنًا [1]

قصة

لما حفر بئر يوسف قيل إن (قراقوش) كان يقذف فيه بالعمال المتمردين كما قيل أن (قراقوش) حول ممرات ومخازن القلعة إلى سجون يضع بداخلها من يعصيه.

(1) القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة، (ص83).

رجال صلاح الدين المخلصون

كان لصلاح الدين رجال مخلصون وكانوا صفوة ممتازة أعانوه على تحقيق انتصاراته العظيمة وطموحاته.

القاضي الفاضل

هو (عبد الرحيم بن علي حسن البيساني) ولد بمدينة عسقلان (1108م) وتولى أبوه القضاء بمدينة بيسان بين بيت المقدس ويافا ولذلك ينسب إلى مدينة بيسان.[1] و قدم إلى مصر وعمل في ديوان الإنشاء في عهد الخليفة الفاطمي (الحافظ لدين الله) ثم تدرج في المناصب حتى تولى رئاسة الديوان. وكان القاضي الفاضل مقربًا من (صلاح الدين الأيوبي) وقد استعان به في إزالة الدولة الفاطمية ثم اتخذه وزيرًا له ليشاوره في أمور الدولة وقال عنه صلاح الدين: «لاتظنوا أنكم ملكتم البلاد بسيوفكم بل بتعليم الفاضل».



(1) تاريخ الإسلام (ص508).

وكان(القاضي الفاضل) شاعرًا واشتغل بعلم الأدب وقام بنهضة تعليمية كبيرة وقد جاء الطلاب والعلماء بفضله إلى مصر من أقصى البلاد. اشترى (100,000) مجلد أي كتاب ضخم من كتب الفاطميين وقد أحيا حركة العلوم والثقافة والآداب وكان عنده عدد من النساخ الذين يقومون بنقل الكتب وعدد من المجلدين الذين يجلدون الكتب للمحافظة عليها. أنشأ (القاضي الفاضل) المدرسة الفاضلية وهي مدرسة تدرس المذهب المالكي والشافعي وكانت تقع بدرب ملوخيا (1184م). وكانت أول مدرسة في مصر تدرس مذهبين في مدرسة واحدة وأول مدرسة تزود بمكتبة ضخمة في سائر العلوم فكانت تحتوي على (100,000) مجلد.

القاضي ابن شداد

هو (بهاء الدين أبو المحاسن يوسف رافع بن شداد) ولد في الموصل(1145م). دخل القاضي ابن شداد في خدمة (صلاح الدين الأيوبي) (1185م) عندما ولاه قضاء العسكر والحكم بالقدس الشريف ومن هذا التاريخ لم يفارق صلاح الدين حتى وفاته. وقد كتب كتابًا عن سيرة صلاح الدين يعتبر من أهم المصادر التاريخية لحياة صلاح الدين (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية).

قراقوش

قراقوش هو (الأمير بهاء الدين الأسدي)، كان وزير صلاح الدين ويعد واحدًا من رجاله المخلصين. كان قراقوش رجل دولة ناجحًا وبطلًا عظيمًا، خاض معارك كثيرة مع صلاح الدين. كما كان وصيًا على أولاد صلاح الدين بعد وفاته، فكان مخلصًا وأمينًا عليهم وحافظ لهم على عرشهم، وقام ببناء قلعة الجبل والأسوار.[1] ولكن اتخذه العامة كمادة خصبة للقصص وضربوا به الأمثال في الظلم ولقبوه بـ (بقراقوش) ومعناها طائر العقاب الأسود. والحقيقة هي أنه عندما عين صلاح الدين قراقوش زمامًا للقصر أي مشرفًا على شئونه كان صارمًا فكان لا يدخل إلى القصر شيء ولايخرج منه شيء إلا بعلمه فضاق منه أهل القصر لشدته. وعندما كلفه صلاح الدين ببناء الأسوار كان شديدًا وصارمًا مع العمال فنسج حوله أعداؤه هذه القصص.



شراء المماليك

- اهتم صلاح الدين بشراء المماليك للخدمة في الجيش وسموا بالصلاحية نسبة له.
- السلطان العادل أنشأ فرقة المماليك العادلية.
- السلطان الكامل أنشأ فرقة المماليك الكاملية.
- الملك الصالح نجم الدين أيوب أنشأ فرقة المماليك الصالحية.

(1) بدائع الزهور، (ص87).



الحروب الصليبية

اجتمع أمراء أوربا واتفقوا على بدء حرب تحت راية الصليب بزعم الدفاع عن المسيحية. وكان هدفها الحقيقي الاستيلاء على طرق التجارة والأسواق التي كان المسملون يسيطرون عليها. وقد وقعت حروب طويلة بين المسلمين والصليبيين في الشام ومصر سميت بالحروب الصليبية.[1] وقد تمكن الصليبيون من احتلال القدس سنة 1099م، كما أقاموا مملكة بيت المقدس وثلاث إمارات صليبية (الرها – أنطاكية – طرابلس) وحاولوا مرارًا أخذ مصر ولكن لم يتمكنوا من دخولها إلا في عصر الخليفة الفاطمي العاضد. ووقفت الدولة العباسية والدولة الفاطمية عاجزتين أمام هذا العدوان، وجاء الخلاص منهم على أيدي المجاهدين بداية من عماد الدين زنكي حتى صلاح الدين ثم المماليك. ووراءهم (صلاح الدين الأيوبي) الذي استطاع هزيمتهم وصد هجماتهم.

معركة حطين (1187م)

هي معركة حاسمة بين صلاح الدين و الصليبيين بالقرب من قرية حطين بين بلدة الناصرة وطبرية بالشام. عقد صلاح الدين هدنة مع (بلدوين الرابع) ملك القدس (1178م) تضمنت حرية التجارة بين مصر والشام لمدة أربع سنوات. نقض الهدنة (رينو دي شاتيون) أمير الكرك وكان العرب يطلقون عليه أرناط وكان مشهورًا بالتهور

(1) التاريخ الإسلامي، (ص432).

والحماقة. وقد فرض على القوافل المارة بالشام إتاوة أي كان يأخذ منهم أموالًا بالإكراه ثم هجم على قافلة إسلامية متوجهة من القاهرة إلى دمشق وبها أخت صلاح الدين. طلب صلاح الدين من (رينو دي شاتيون) أن يرد ما استولى عليه ويطلق سراح الأسرى فرفض فأعلن صلاح الدين الجهاد الديني وسار إليه في قلعة الكرك وحاصره. ثم زحفت جنود الصليبيين البالغ عددهم (22,000) من صفورية إلى حطين لمواجهة جيوش المسلمين فأرهقهم الحر الشديد والعطش. وتقابل الصليبيون في حطين مع جيوش صلاح الدين البالغ عددها (25,000) جندي، وقد قامت بينهما معركة طاحنة دامت لمدة سبع ساعات ولجأ من استطاع منهم الفرار إلى جبل حطين. وحطين قرية عندها قبر نبي الله شعيب عليه السلام[1] وسقط فيها الكثير من القتلى والجرحى وانتهت بهزيمة الصليبيين هزيمة ساحقة وانتصار صلاح الدين الذي أسر أعدادًا كبيرة منهم (جي دي لوزنيان) ملك بيت المقدس و(رينو دي شاتيون). وقد أطلق صلاح الدين سراح (جي دي لوزينيان) وقتل أرناط (رينو دي شاتيون) ثم قام بفتح البلاد والمدن الصليبية الواحدة تلو الأخرى وفتح بيت المقدس أكتوبر (1187م) بعد حصار دام أسبوعًا وبعد أن ظل (88) عامًا في أيدي الصليبيين وفتح اثنتين وخمسين مدينة وقلعة وحصنًا.

المعارك التي دارت بين الصليبيين والمسلمين:

الحلمة الصليبية الأولى (1096م)

كانت مكونة من حملتين الحملة الشعبية (1096م) جمع بطرس الناسك المتطوعين لهذه الحرب ثم قامت حملة ثانيةعرفت بحملة الأمراء (1097م) لأنه قام بها أمراء أوروبيون في خمسة جيوش تمثل الإمارات الأوربية، وكان من بينهم جودفري البويوني وبلدوين. وقد سار الصليبيون إلى بيت المقدس واستولوا عليه وقاموا فيه بمذبحة كبرى ضد السكان وأسروا أعدادًا كبيرة منهم، ونصبوا جودفري رئيسًا وحاميًا لبيت المقدس. ثم هزموا السلاجقة الروم وأخذوا أنطاكية وكونوا إمارة صليبية واستولوا على اللاذقية وبيت لحم والخليل والرملة.



جزء من سور القلعة وتظهر به فتحات المزاغل التي كانت تطلق منها السهام

(1) موسوعه التاريخ الإسلامي، (ص752م) ج5.

الحملة الصليبية الثانية (1123م)

جاءت هذه الحملة بقيادة ملكين من ملوك أوروبا هما (لويس السابع) ملك فرنسا و(كونراد الثاني) إمبراطور ألمانيا. وقد تحاربوا مع السلاجقة في بلده كونيا وهزموا هزيمة ساحقة ثم خرج لهم (نور الدين محمود زنكي). وقد فشلت الحملة الصليبية الثانية بعد أن هزم السلاجقة قوات الألمان وتنازع لويس مع الصليبيين المستوطنين.

الحملة الصليبية الثالثة (1165م)

لما علم أهل أوروبا بتحرير مدينة القدس على يدي صلاح الدين صمموا على استردادها وأرسلوا عدة جيوش يتولى قيادتها ملوك أوروبا مثل (ريتشارد قلب الأسد) ملك إنجلترا، و(فيليب أغسطس) ملك فرنسا و(فردريك بارباروسا) إمبراطور ألمانيا وقد استولوا على عكا بعد حصار دام لمدة سنتين. وقد فشلت هذه الحملة ولم يستطع الصليبيون استعادة بيت المقدس.

الحملة الصليبية الرابعة (1204م)

تحركت حملة يرأسها أمراء فرنسيون قرروا التوجه إلى القسطنطينية (عاصمة الدولة البيزنطية). فهجم الصليبيون على القسطنطينية واستولوا عليها وخربوها.



الحملة الصليبية الخامسة (1218م)

كانت مكونة من زعماء أوروبا (ليوبولد السادس) ملك النمسا و(أندرية الثاني) ملك هنغاريا و(همايو) ملك قبرص. وكان هدفها الشواطىء المصرية فذهبوا إلى مصر واستولوا على دمياط التي كانت تعتبر مدخلًا لمصر. وقد توفي السلطان العادل وهو في طريقه من الشام إلى مصر لصد الصليبيين. وقد خلفه ابنه الملك الكامل الذي قاتل الصليبيين قتالًا عنيفًا ثم طلب عقد صلح معهم وطلب تسليم بيت المقدس مقابل رحيلهم عن مصر ولكنهم رفضوا.[1] واتجه الصليبيون إلى القاهرة فحاصرتهم مياه الفيضان و عزلتهم عن قاعدتهم الحربية في دمياط فطلبوا الصلح ورحلوا عن مصر(1221م) بدون شروط.

الحملة الصليبية السادسة (1229م)

كانت حملة سلمية بناء على المفاوضات بين الإمبراطور فردريك الثاني أعجوبة الدنيا والسلطان الكامل الذي عقد معه هدنة لمدة عشر سنوات على أن يأخذ الصليبيون بيت المقدس بدون قتال. وقد استرد ابنه (الملك الصالح نجم الدين أيوب) بيت المقدس من الصليبيين.

الحملة الصليبية السابعة (1294م)

دخل (لويس التاسع) ملك فرنسا إلى دمياط بمصر ومعه جيش مكون من 100,000 جندي و282 سفينة. خرج الملك (الصالح نجم الدين أيوب) لمحاربتهم ولكنه مات بالمنصورة فأخفت زوجته (شجر الدر) خبر وفاته عن الجنود وتمكن الجيش المصري من هزيمة الفرنج وأسر ملكهم وسجنه في دار ابن لقمان بالمنصورة. فدى (لويس التاسع) نفسه بمبلغ (100,000,000) فرنك وخرج من دمياط. وقد فشلت هذه الحملة. ثم جاء توران شاه ليتسلم الحكم وقيادة الجيش.



(1) موسوعة التاريخ الإسلامي، (ص770) ج5

محاولات الصليبيين للاستيلاء على مصر

قام الصليبيون بمحاولات عديدة لضم مصر:

- (1099م) أعد الملك (جودفري دي بوايون) أول ملوك الصليبيين في القدس مشروعًا للاستيلاء على مصر ولكنه مات قبل أن يستطيع تنفيذه. وخلفة أخوه (بلدوين الأول) فقرر استكمال مشروع أخيه فقام (1115م) بحملة استطلاعية على مصر فوصل إلى مدينة تنيس (الفيوم حاليًّا) ولكنه مرض ومات هو أيضًا بسبب وجبة سمك من بحيرة البردويل (وهو تحريف لاسم بلدوين) وفشلت الحملة.
- محاولة(عموري الأول) ملك القدس وقد بدأت عندما استدعاه الوزير الفاطمي ضرغام لمساعدته ضد الوزير شاور. دخل عموري مصر واستولى على بلبيس وقتل كثيرًا من العوام، ولكن استطاع (أسد الدين شيركوه) و(صلاح الدين الأيوبي) فتح مصر وطردوا عموري وقضوا على الخطر الصليبي (1164م).
- الحملة الصليبية الخامسة على مصر (1218م)
- الحملة الصليبية السابعة على مصر (1294م)

سقوط عكا

حاصر الصليبيون عكا برًّا وبحرًا لمدة عامين تحت قيادة ملك إنجلترا (ريتشارد قلب الأسد). وقامت اشتباكات شرسة بين الطرفين انتهت بسقوط عكا (1180م) وأسر الصليبيون حوالي (3000) أسير منهم (بهاء الدين قراقوش) وزير صلاح الدين المقرب وقد افتداه بعشرة آلاف دينار. أمر قلب الأسد بقتل الأسرى جميعهم؛ فحزن صلاح الدين وبكى عليهم بكاءً شديدًا. وكانت معركة عكا أول معركة يخسرها (بسبب الخيانة) صلاح الدين منذ أربعة عشر عامًا.[1]



قصة

كان صلاح الدين يحب لقاء العدو يوم الجمعة وقت الصلاة لأنه كان يتبرك بدعاء المسلمين في هذا الوقت.

صحن المدرسة الكاملية

(1) الخطط المقريزية، (ص381).

صلح الرملة

بعد مراسلات ومشاورات طويلة عقد صلاح الدين مع (ريتشارد قلب الأسد) ملك إنجلترا وقائد الصليبيين صلحًا يطلق عليه صلح الرملة (1192م). ينص هذا الصلح على:

- بقاء بيت المقدس في أيدي المسلمين مع السماح للنصارى بأداء فريضة الحج.
- أن يسود السلام بين الطرفين لمدة ثلاث سنوات.
- حرية المسلمين والنصارى في اجتياز أراضي بعضهم البعض[1] وتم هذا الصلح بعد الحملة الصليبية الثالثة التي فشلت في تحقيق أهدافها وإزالة آثار معركة حطين. لم يقدم صلاح الدين على هذا الصلح بإرادته ولكن اضطرته الظروف لذلك فهو كان يتمنى الاستمرار في الجهاد. وقد قوبل الصلح بالارتياح من كلا الطرفين وعادت الحياة طبيعية إلى القدس وتحلى صلاح الدين بالتسامح والشهامة مع الصليبيين. ومن كرم أخلاق صلاح الدين في فتح بيت المقدس أنه عندما استولى الصليبيون على بيت المقدس (1099م) قتلوا وخربوا. وكان الفرق كبيرا جدًّا بينهم وبين صلاح الدين فعندما استرد منهم بيت المقدس (1187م) بعد حوالي تسعين عامًا كان في غاية الكرم والنبل. أمن صلاح الدين أهل بيت المقدس على أنفسهم وأموالهم ورفض إراقة أي دماء[2] وطلب منهم دفع فدية قدرها عشرة دنانير عن كل رجل والخروج في سلام في مدة قدرها أربعون يومًا. وكان صلاح الدين يتسامح مع من لا يستطيع الدفع أو يدفع هو بدلا عنهم[3] حتى بلغ عدد من دفع عنهم صلاح الدين الفدية (10,000) شخص.

قصة

كان من ضمن الخارجين من بيت المقدس بطريرك المدينة أي رئيس رؤساء الأساقفة في الكنيسة وكان معه كل أموال الكنائس وكانت أموالًا كثيرة. فطلب الناس من صلاح الدين أن يصادر هذه الأموال فرفض صلاح الدين وقال لهم: «لا آخذ سوى العشرة الدنانير ولا أغدر به.» كما أكرم صلاح الدين ملكة بيت المقدس فسمح لها أن تصطحب معها كل أموالها وخدمها وامرأة (رينو دي شاتيون) ولم يأخذ منهما سوى[4] الفدية المفروضة.

صورة تُعبر عن الصيد، ويظهر بها فارس يمتطي جواده ويُطلق سهامه على ذئب يهاجمه

(1) تاريخ مصر الإسلامية (ص200).

(2) تاريخ الأيوبيين (ص154).

(3) صلاح الدين الأيوبي (ص128).

(4) المرجع السابق.

المقاومة الشعبية

في كل مرحلة من مراحل الحروب الصليبية على مصر استبسل العامة في الدفاع عن أرضهم وأثبتوا شجاعة منقطعة النظير.

- عند غزو أسطول صقلية لمدينة الإسكندرية (1173م) أحرق العامة الدبابات الصقلية وهي نوع من الأسلحة غير الدبابات الحديثة التي كانت تضرب المدينة بالمنجنيق.[1]
- وعندما حاصرت أربعون سفينة صليبية مدينة تنيس (1175م) أوقف الصيادون مراكبهم في مواجهة الأسطول الصليبي لصده.
- وعند دخول الصليبيين مدينة دمياط (1218) رفض الأهالي ترك المدينة على الرغم من القتال الشديد الذي كان دائرًا.
- وعند زحف الصليبيين على مدينة القاهرة (1218م) في الحملة الصليبية الخامسة على مصر فتح الفلاحون الجسور على نهر النيل في وقت الفيضان فحاصرت المياه جيوش الصليبيين من سائر الجهات ولم يستطيعوا دخول القاهرة.[2]

الجيش

اهتمت الدولة الأيوبية بالجيش اهتمامًا كبيرًا فكون صلاح الدين جيشا مكونًا من فرق مختلفة يبلغ عدد الفرقة حوالي (200) فرد وجعل لكل فرقة أميرًا.

الجنود النظاميون

الفرسان: أكراد وأتراك.



سور القلعة ويظهر به برجا الرملة والحداد

(1) **طبقة العامة** (ص233).

(2) **طبقة العامة** (ص235).

المشاة: هم الذين يقاتلون بالرمح والسيف.

المتطوعة: وهم المتطوعون في الجيش وكان ينقصهم التدريب الكافي ولكن كان حماسهم كبيرًا للجهاد في سبيل **الله**؛ لأنهم تطوعوا بإرادتهم. لتقديم الخدمات للجيش وللمساعدة في أعمال القتال، كما اشترك العلماء والفقهاء ليس بالقتال الفعلي ولكن بمرافقة الجيوش لرفع الروح المعنوية وحث الجنود على القتال.[1]

الخطط العسكرية

كان صلاح الدين يحب البدء بالهجوم على أعدائه وقد استخدم في حروبه خطط الحرب التقليدية؛ إذ كان الجيش ينظم على أساس فرق:

- **المقدمة**: الكتيبة التي تقف في الأمام
- **الميمنة**: الكتيبة التي تقف في الجانب الأيمن
- **الميسرة**: الكتيبة التي تقف في الجانب الأيسر
- **القلب**: الكتيبة التي تقف في الوسط
- **المؤخرة**: الكتيبة التي تقف في الخلف

الكمائن

وكان صلاح الدين يعد الكمائن الناجحة لأعدائه، فكانت تختبئ مجموعات من الجنود في أماكن مخفية عن العيون لتقوم بهجوم مفاجئ على العدو. كما كان يستخدم في حروبه أعلامًا صفراء عليها رمز النسر الذي يمثل القوة.

أسلحة الجيش

السيوف: هي أكثر الأسلحة استخدامًا، وكانت تصنع من الحديد الفولاذي ويسن طرفها حتى يكون حادًا جدًّا. وكان هناك ثلاثة أنواع من السيوف:

القليـــج: هو سيف مقوس نصله ذو حدين.



(1) **تاريخ الأيوبيين**، (ص256).

اليتاغان: هو سيف ذو نصل واحد ثقيل من الأمام وكان أكثر الأنواع شيوعًا.

الشمشير: هو سلاح نصله ضيق وسميك وله حدٌّ واحد.[1]

الرماح: كان الرمح من الأسلحة الفردية التي تستخدم في الطعن وكان مكونًا من قناة (عود – عصا) طويلة مثبت في أعلاها حربة معدنية.

الأقواس: كانت من أهم الأسلحة الفردية التي تستخدم في الرمي لمسافات طويلة. وكان القوس عبارة عن عود يقوس كالهلال ويثبت له وتر قوي من الحرير أو الجلد. أما السهام فكانت تصنع من أعواد الشجر ويزود لها رأس فولاذي.

المنجنيق: كان المنجنيق يستخدم لهدم الأسوار والحصون عن طريق قذف الحجارة. وكان المنجنيق يتكون من قاعدة خشبية مربعة يرتفع في وسطها عامود من الخشب ويثبت في أعلاه ذراع يوجد في طرفه وعاء مجوف توضع في قلبه الحجارة. وفي الطرف الآخر صندوق مملوء بالحديد للتوازن.

النفاطات: كانت تصنع على شكل كور من الكتان المشبع بالنفط (البترول) أو قدور خزفية صغيرة تملأ بالنفط ويتم إلقاؤها على الأعداء.

الأسلحة الوقائية

الدروع: للوقاية ضد السيوف والرماح، وكان الدرع عبارة عن قطعة واحدة من المعدن تنسج على هيئة ثوب من حلقات معدنية. والدروع أنواع فهناك:

السبلة: هو درع له أكمام طويلة.

البتراء: هي دروع بدون أكمام وتكون قصيرة تصل فوق الركبة.

الجوشن: هو درع له صدر وأكمام ولكن بدون ظهر.

الخوذة: هي غطاء واقٍ للرأس كان يصنع من الحديد الفولاذ، وكان ينقش عليه زخارف هندسية ونباتية وكتابات عربية.

الغفارة: هي عبارة عن حلقات معدنية على قدر حجم الرأس لحمايتها وتغطي جانبي الوجه والرقبة وتلبس عادة تحت الخوذة.

اليلب: وهي تلبس فوق الرأس لحمايتها وهي مكونة من سيور جلدية وتلبس أيضًا تحت الخوذة.

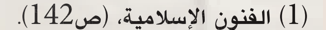
السلاح خانة

خان باللغة الفارسية يعني بيت السلاح وكان يشتمل على أنواع عديدة من الأسلحة، رماح، سيوف، أقواس، نشاب، خوذ وتروس وبارود. اهتم الأيوبيون بكثرة الأسلحة في خزائنهم وكان ديوان الجيش يضم كل المعلومات الخاصة بالأسلحة.

اصطلاحات دفاعية

الساتر: هو عبارة عن حائط يعلو الواجهات الخارجية للسور فيخلق وراءه مكانًا مخفيًّا عن العيون يستطيع الجنود الاختباء فيه واستخدام الرماح والسهام دون أن يراهم الأعداء.





(1) الفنون الإسلامية، (ص142).

المزاغل: المزاغل هي فتحات لرمي السهام على شكل شق مستطيل ضيق من الخارج ومتسع من الداخل ليتحرك وراءه الرماة بسهولة.

المداخل المنكسرة: وتعرف بالباشورة وهي مصممة بحيث تجعل الداخل ينعطف يمينًا أو شمالًا فلا يستطيع الدخول مباشرة من الباب.

الأسطول

اهتم صلاح الدين بالأسطول وقد قام بتغيير اسمه إلى ديوان الأسطول وجعل عليه قائدًا عرف بصاحب الأسطول، وطلب من جميع الجنود المصريين والشاميين طاعته. وقد خصص مبلغ 58,000 دينار سنويًا للإنفاق عليه وشجع الناس على الالتحاق بالبحرية.

أسلوب صلاح الدين في الحروب

اتصف صلاح الدين بالصبر الشديد على الجهاد في سبيل **الله** و قوة التحمل أثناء المعارك. وكان يتبع مبدأ الشورى في قراراته فلم يكن ينفرد أبدًا برأيه بل كان يستشير (القاضي الفاضل) وإخوته وأمراءه في كل الأمور المهمة.

الأقطار التي حكمها الأيوبيون

– مصر – دمشق – حلب – الموصل – حماة – حمص – الحجاز – اليمن.

الشرطة

كانت تعرف بالشحنجية في العصر الأيوبي وكان يطلق على رئيسها (والي الحرب) وكان يحل محل الوالي ويقوم بمهامه أثناء غيابه ويؤم المصلين.

السكة

صك الأيوبيون الدنانير الأيوبية ذات الكتابات الأفقية التي أصبحت تملأ وجهي القطع النقدية.

القضاء

كان المذهب السني هو المذهب المتبع في القضاء، وقد ألزم (صلاح الدين) القضاة باتباع المذهب الشافعي.

مهام المحتسب

كان للمحتسب مجلس بدار العدل وكان يلزم الناس بتطبيق المذهب السني كما كا ن يراقب الأسواق وقد ألزم الناس:

– بالاهتمام بنظافة الأسواق.
– ألزم العاملين في حرف الطعام بغسل وتنظيف أوانيهم وتغطيتها من الذباب.
– جعل زيًا خاصًا للعاملين بحرف الطعام لتفادي سقوط العرق والشعر في الطعام.
– وضع الصناعات ذات المخلفات الضارة على أطراف المدينة.



صورة توضح الملابس التي كان يرتديها المحاربون

الحياة الاقتصادية

الزراعة

مصر بلد زراعية وتعد الزراعة المصدر الرئيسي للدخل القومي منذ أقدم العصور. وقد اهتم الأيوبيون بالزراعة فحفروا الترع وأقاموا الجسور وطوروا وسائل الري و طهروا الترع. وكان الفلاح يزرع أرضه مرة واحدة في السنة وهذا النظام يطلق عليه (الري الحوضي)[1] ومن المحاصيل التي كانوا يقومون بزراعتها القمح والشعير والفول والحمص والعدس والكتان وقصب السكر والسمسم والقطن والعنب.

الأسواق

ازدهرت أسواق مدينة القاهرة وتم إنشاء أسواق جديدة لم تكن موجودة من قبل:

سوق باب الفتوح: لبيع اللحوم والخضراوات.

سويقة المسعودي: كانت بحارة زويلة.

سويقة البلشون: توجد خارج باب الفتوح.

سوق السلاح: لبيع الأسلحة المختلفة من أقواس ونشاب وسيوف، وقد ازدهر هذا السوق ازدهارًا شديدًا نتيجة للحروب الصليبية.

سوق المهامزين: لبيع مستلزمات الخيول، وقد ازدهر هذا السوق للطلب الشديد على تجهيز الخيول لاستخدامها في الحروب.

سوق الشرابيشيين: لبيع ملابس السلاطين والأمراء.

التجارة

اهتم الأيوبيون بالتجارة واستغلوا موقع مصر الجغرافي المتوسط. ولم تؤثر الحروب الصليبية على التجارة المصرية، لأنه ساد بين الحروب فترات سلام وهدنة تبادل فيها الأيوبيون والصليبيون أنواعًا مختلفة من التجارة عن طريق ميناء الإسكندرية. وكانت القاهرة المركز الرئيسي للتجارة في بداية العصر الأيوبي بعد احتراق الفسطاط نتيجة لحريق شاور في نهاية العصر الفاطمي. ثم ازدهرت الفسطاط مرة أخرى في عصر (الصالح نجم الدين أيوب) عندما بنى قلعة الروضة فانتقل للسكن بها كثير من الأمراء فازدهرت أسواق الفسطاط مرة أخرى.



الصناعة

الخزف:

ظهر نوع جديد من الخزف عبارة عن نقش تحت الطلاء عليه كتابات بالخط النسخي.

الحفر على الخشب:

ازدهر الحفر على الخشب خصوصًا في المحاريب والمنابر والتحف الخشبية والتوابيت مثل تابوت الإمام الشافعي. كما ظهرت الأبواب النحاسية بديعة الجمال.

(1) **إقليم الغربية**، (ص107).

التحف الزجاجية والبلورية:

لقد بلغت صناعة الزجاج درجة كبيرة من الرقي والازدهار. ولقد انتشرت زخرفة الأواني الزجاجية بالمينا وتمويهها بالذهب. وكان يكتب عليها جمل دعائية مثل: (الدولة الباقية والسلامة الدائمة) أو (العافية والنعمة السابغة والراحة) وكانت تكتب بخط النسخ. كما انتشر رسم زهرة الزئبق والنسر.[1]

المنسوجات:

اشتهرت مصر بالمنسوجات الفاخرة وخاصة في مدينة تنيس التي كان يوجد بها (5000) منسج. ولكن في العصر الأيوبي هجم الصليبيون على تنيس واستولوا عليها وخرج أهلها منها واحتموا في مدينة دمياط. وبعد جلاء الصليبيين عن تنيس(1219م) أمر الملك الكامل بتخريبها خوفًا من وقوعها في أيدي الصليبيين مرة أخرى فتأثرت هذه الصناعة بسبب الحروب الصليبية.

المصنوعات الغذائية:

أهم الصناعات الغذائية هي طحن الغلال في الطواحين للحصول على الدقيق الذي يصنع منه الخبز. كما كان هناك معاصر لعصر الزيوت المستخدمة في الطعام وفي الإضاءة بالإضافة لمعاصر القصب الذي يستخرج منه السكر.

صناعة الأسلحة:

كانت من أكثر الصناعات ازدهارًا لحاجة الجنود لأعداد كبيرة من أدوات القتال.

صناعة السفن:

بلغت قمة الإتقان حتى صنعت السفن بدون وضع مسمار واحد واعتمدت على طريقة العاشق والمعشوق.

صناعة السروج:

ازدهرت صناعة السروج التي توضع فوق ظهر الخيول نتيجة لاعتمادهم على الخيول في حروبهم ضد الصليبيين.

أرباب الحرف

شملت طبقة العامة العديد من الحرف في مختلف المجالات مثل:

البناء: الذي يقوم ببناء وتشييد المباني المختلفة

النجار: الذي يصنع الأثاث المصنوع من الخشب

المرخم: الذي يقوم بتركيب الرخام

العجان: الذي يصنع الخبز والعجين

المجبر: الذي يقوم بتجبير الكسر للناس (مثل أطباء العظام حاليًّا)

النساخ: الذي يقوم بنسخ ونقل الكتب

المجلد: الذي يقوم بتجليد وتغليف الكتب

الكحال: الذي يقوم بعلاج أمراض العيون (طبيب العيون)



(1) **الفنون الإسلامية**، (ص163).

تدهور الحالة الاقتصادية

أثرت الحروب الصليبية على الحالة الاقتصادية لأن كل أموال خزانة الدولة كان يتم إنفاقها على الحروب والجيش والأسطول والتحصينات العسكرية. كان هناك رخاء اقتصادي في عصر صلاح الدين فكان سعر أردب القمح (أي المائة كيلو) ثلث دينار ولكن ارتفعت الأسعار في عهد العادل والكامل بسبب انخفاض منسوب فيضان النيل وكثرة الحروب حتى وصل سعر رطل الخبز (أي كيلو إلا ربعًا) (1,5) درهم.

الحياة الاجتماعية

كان المجتمع مكونًا من ثلاث طبقات:

طبقة أرستقراطية: الملك والطبقة الحربية الارستقراطية.

طبقة وسطى: رجال التعليم وموظفو الدواوين والقضاة والصوفيون وطلاب العلم.

طبقة العامة: أرباب الحرف وصغار التجار.

شمعدان من البرونز

الملابس

ارتدى العامة:

البشت: ثوب مصنوع من الصوف بدون أكمام وكان يرتديه أرباب الحرف والفلاحون.

التبان: سراويل قصيرة تصل إلى الركبة لونها أزرق كان يلبسها السقاءون الذين يجلبون المياه إلى البيوت وارتداها أيضًا البناءون.

الجبة: كان هناك نوع مفتوح من الأمام وكان يبطن بالفرو، ويرتديه العلماء. وكان هناك نوع مقفول من الأمام يصنع من الصوف الخشن وله أكمام واسعة.

القنباز: هو لباس طويل مفتوح عند الرقبة كان يرتديه الفلاحون.[1]

الفوطة: هي عبارة عن قطعة من القماش يشدها العوام فوق ثيابهم مثل الحزام.

العمامة: كان كبار رجال الدولة يلبسون عمائم كبيرة من قماش القصب فوق رءوسهم أما العامة فكانوا يلبسون عمائم صغيرة من القطن.

العصابة: منديل مثلث يلف فوق الرأس يلبسه أرباب الحرف.



شباك من الزجاج الملون

(1) **طبقات العامة**، (ص124).

الأحذية

القبقاب: كان يصنع من الخشب ويستخدم في الحمام
المداس: كان منتشرًا بين رجال العامة.

ملابس النساء

الأتب: هو قميص بدون أكمام ويلبس فوقه ثوب طويل وكانت النساء تفضل الأكمام الواسعة.
القباطي: هي أثواب ضيقة وعند الخروج كن يلبسن فوق ملابسهن إزارًا عبارة عن ملاءة واسعة تخفي معالم الجسد.
الزربون: خف يلبس في القدم

زينة النساء

تزينت النساء بالعقود والخواتم والخلاخيل والأقراط النحاسية والفضية والذهبية. أثرت الحروب الصليبية على أشكال الحلي فصنعوها على شكل سيوف وتروس وخناجر. وكانت النساء يرتدين هذه الأشكال الحربية لمسانده الرجال الذين ذهبوا للقتال.

قصة

منع المحتسب صانعي الأحذية من أن يصنعوا أحذية للنساء تحدث صوتًا عند المشي بها حتى لا يلفتن الأنظار.

أحياء القاهرة

بعد حريق شاور (1169م) انتقل أهل الفسطاط للإقامة بالقاهرة وكان لكل أرباب حرف حي خاص بهم:
زقاق القناديل: يسكنه الأساكفة أي صناع الأحذية
حارة الرميلة: يسكنها السياس
حارة الريحانية: يسكنها الأفارقة السود
حارة الخشابين: يسكنها النجارون
حارة الحدادين: يسكنها المشتغلون بالصناعات المعدنية.



برج السباع في قلعة الجبل

الحمامات العامة

كان الناس يذهبون إليها للاستحمام والتدليك نظرًا لعدم وجود أنابيب لتوصيل المياه إلى البيوت، وكانت بها أحواض من المياه الفاترة وأحواض من المياه الساخنة. كانت الحمامات تبنى بالأجر وتطلى باللون الأبيض أما الأرضيات فتكون من الفسيفساء. لم يكن بالحمامات نوافذ بل كان الضوء يدخل إليها عن طريق فتحات زجاجية في السقف. بنى الأيوبيون عددًا قليلًا من الحمامات واعتمدوا على الأعداد الكبيرة من الحمامات الفخمة التي شيدها الفاطميون. ومن الحمامات التي شيدها الأيوبيون (حمام عجينة) و(حمام بن علكان).

وصف القاهرة

زار الرحالة (عبد اللطيف البغدادي مصر) (1203) فقال عنها إنه لا يوجد مثلها في الدنيا في حسن بنائها ولا في مهارة إدارتها. وأعجب بالحمامات العامة إعجابا شديدا فقال: «وأما حماماتهم فلم أشاهد في البلاد أعظم إتقانًا منها ولا أتم حكمة ولا أحسن منظرا ومخبرا.»[1]

منازل العامة

كانت منازل العامة من الناس بسيطة مكونة من ثلاثة أو أربعة طوابق وكان الأثاث قليلا ما عدا الأساسيات من صناديق لحفظ الملابس والأسرة ومائدة للطعام والحصير والكراسي وأواني الطهي والأباريق والأكواب.

المنازل المؤجرة: كان يسكن فيها الناس بقيمة إيجارية متفق عليها.

المنازل المملوكة للعامة: هي المنازل التي يمتلكها أرباب الحرف مثل (دار على السقا، دار عيسى البقال) وكان سعر المنزل يتراوح ما بين:

– 50 دينارا للمنزل الصغير.

– 150 دينارا للمنزل المتوسط.

منازل الفقراء: أما الفقراء الذين لا يستطيعون امتلاك المنازل فكانوا يسكنون في منازل بالأجرة تشبه الأحواش، أما المعدمون فكانوا يقيمون في المساجد التي كانت مفتوحة للناس ليلا ونهارا.[2]

الطعام والشراب

أكل العامة الكثير من الأطعمة المختلفة مثل:

الكمــاج: خبز شديد البياض يعجن بدون خميرة

خبز الشعير: مصنوع من الشعير

خبز الذرة: مصنوع من الذرة

المــش: نوع من الجبن المضاف إليه اللبن و كثير من الملح ولا يزال يأكله المصريون يأكلونه حتى اليوم وخصوصا الفلاحين.

(1) الإفادة والاعتبار، (ص114).

(2) الخطط المقريزية، (ص319).

الرجلة: نوع من الخضار

الملوخية: وهي خضار يتم طبخه مع اللحم وكان يطلق عليها الأطباء (الملوكية).[1]

الفول: كانوا يأكلونه أخضر أو مسلوقًا مع إضافة الملح والفلفل.

البيسار: هو فول مطبوخ بالسمن واللبن، وهو قريب الشبه بـ «البصارة» المعروفة اليوم.

الجلبان: خضار مثل الملوخية يتم طهيه أو أكله نيئًا، كما أكلوا لحوم الجمال ولحوم الخيول بجانب لحوم الغنم والبقر والأسماك.

الحلويات

الزلابية: كانت من أشهر الحلويات وهي تصنع من دقيق وعسل.

الكنافة: ولا تزال من أكثر الحلويات المحببة إلى نفوس المصريين حتى اليوم.

الفواكه

الجمين: كان متوفرًا بكثرة شديدة وكان محببًا جدًا إلى الناس وثمرته تشبه ثمرة التين.[2]

النبق: و هو صغير الحجم، أخضر اللون وله نواة.

كما أكلوا الرمان والموز والنارنج والتمر والبطيخ العبدلي.[3]

الشراب

ماء النيل: من أشهر المشروبات ماء النيل المضاف إليه بعض حبات اللوز أو نوى المشمش لتنقيته.

النيدة: عصير القمح المغلي.[4]

شراب العسل: ماء النيل مضافًا إليه العسل.

الكراوية: يتم غليها وإضافة السكر أو العسل إليها.

الزواج

كانت الخاطبة تتردد على الحمامات العامة لتتعرف على البنات وترشحهن لراغبي الزواج حسب طلبهم.كان العريس يدفع المهر ويقوم والد العروس بشراء الجهاز الذي كان بسيطًا ولا يزيد عن صندوق خشبي وحصير وأدوات منزلية. وفي يوم الزفاف تذهب العروس إلى الحمام لتزينها الماشطة.

السبوع

في اليوم السابع لمولد الطفل كانوا يضعون عند رأسه ليلًا بعض الخضراوات ورغيفًا من الخبز وقطعة من السكر لاعتقادهم أنها تجلب له الخير. ويحضر الأقارب والأصدقاء وتدور النساء بالمولود وتمشي أمامهن امرأة تقوم بإلقاء الملح في جوانب البيت لاعتقادهم أنه يمنع الحسد. وأثناء الاحتفال بالسبوع يتم اختيار اسم المولود.[5]

---

(1) **الإفادة والاعتبار**، (ص61).

(2) **المرجع السابق**، (ص64).

(3) **المرجع السابق**، (ص77).

(4) **المرجع السابق**، (ص118).

(5) **طبقات العامه**، (ص133).

المأتم

عند موت أحد الأشخاص كانت النساء يلبسن الملابس السوداء والزرقاء كعلامة على الحزن. وكن يحضرن ندابات وهن نساء يتم استئجارهن ويقمن بالبكاء الشديد على الميت مستخدمات الدفوف ويقمن بترديد محاسن الميت ويتحسرن عليه وهذه بدع تخالف الشريعة الإسلامية.[1]

الأعياد والاحتفالات

حاربت الدولة الأيوبية الاحتفالات المرتبطة بالبدع وأقامت الاحتفالات بالأعياد السنية فقط.

الموالد: كان من العادات السائدة في العصر الفاطمي الاحتفال بمولد الإمام (على بن أبي طالب) و(فاطمة الزهراء) بنت سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ومولد إمام يدعى الفاطمي والمولد النبوي الشريف. ألغى صلاح الدين هذه الموالد وأبقى على الاحتفال بالمولد النبوي فقط.

وسائل التسلية

الشطرنج:

من وسائل التسلية وكان لعبة السلاطين والأمراء المفضلة كما لعب بها العلماء والأدباء.

رفع الأثقال:

من الألعاب المحببة للعامة حيث يقومون برفع الأحجار والحيوانات.

التنزه في الحدائق والمناظر:

كانوا يذهبون لأرض الطبالة للنزهة و هي تقع (ما بين حي الظاهر وصلاح سالم اليوم).

خيال الظل:

عبارة عن تمثيلية تعبر عن أفكار الناس تستخدم فيها عرائس مصنوعة من الجلد أو الورق المقوى يحركها أشخاص من خلف ستارة بيضاء ويستخدمون أضواءً قوية فتنعكس الخيالات فوق الستارة. كانت هذه العروض تتناول الأحداث التاريخية وكان هناك تمثيلية يطلق عليها (بابة حرب العجم) تتكلم عن الحروب الصليبية وأخرى اسمها (لعب المنار) كانت تصف منارة الإسكندرية وتحث الجماهير على مقاومة الأعداء والدفاع عن الوطن. وكان يشاهد خيال الظل السلاطين والعامة.



شمعدان من البرونز محفور عليه زخارف دقيقة

شهر رمضان المعظم

كانت تتزين المساجد وتُطلى بطلاء جديد وتعلق الفوانيس في الشوارع وتكثر صدقات الأغنياء على الفقراء. وكان الناس يحضرون شيوخًا ليقرءوا القرآن الكريم في المنازل فرحة بقدوم شهر رمضان المعظم. ويدق المسحراتي ليلًا على أبواب البيوت ليوقظ الناس لتناول وجبة السحور.

---

(1) **طبقات العامة**، (ص134).



زجاج ملون

عيد الفطر وعيد الأضحى المبارك

كان الناس يحتفلون بهذه الأعياد بارتداء الملابس الجديدة والخروج إلى المتنزهات. كان الصوفية في الخوانق والربط والزوايا يرتدون الملابس الجميلة الزاهية ويدورون حول أنفسهم على نغمات الموسيقى بحركات إيقاعية (التنورة). ثم تمد الموائد المليئة بالطعام ليأكل منها الناس. ولكن الناس كانوا يذهبون لزيارة الموتى في المقابر يوم العيد، وكانت من العادات التي حرص المصريون عليها حتى اليوم.

الاحتفالات الحربية

كان إذا انتصر أحد سلاطين بنى أيوب على الفرنج (الصليبيين) تُقام الاحتفالات وتُزين الأسواق والدكاكين لعدة أيام.

ليالي الوقود

هي ليالي أول شهر رجب ونصفه وأول شهر شعبان ونصفه وكانت توقد في هذه الليالي كل القناديل الموجودة في الجوامع للاحتفال فلهذا سميت بليالي الوقود. كان يبدأ الاحتفال بعد صلاة العشاء ويقام الذكر وتلاوة القرآن الكريم حتى منتصف الليل.

عيد النيروز

هو من الأعياد القديمة المتوارثة عن قدماء المصريين وكان يمثل بداية العام الجديد. كان للناس تقليد غريب في هذا اليوم فقد كانوا يحضرون رجلا من العامة يطلقون عليه (أمير النيروز) ويقومون بدهن وجهه باللون الأبيض مستخدمين الدقيق أو الجير و يجعلون له لحية ويُلبسونه ثوبًا مزركشًا ويجعلون على رأسه طرطورًا طويلًا ويركب حمارًا ويسير حوله الناس يمرون على البيوت والدكاكين يطلبون الصدقات ومن لا يدفع يقومون برشه بالماء. وقد أبطل صلاح الدين هذه العادة الغريبة.[1]

(1) طبقات العامة، (ص141).

طب العامة



استخدم العامة وصفات تعتمد على الأعشاب الطبية والبذور والحيوانات للاستشفاء:

شحم حيوان التمساح: كان يستخدم كدهان لعلاج آلام المفاصل.

كبد التمساح: كانوا يعتقدون أن أكل كبد التمساح يشفي الأمراض النفسية والعصبية.[1]

شجر اللبخ: لعلاج أوجاع المعدة. [2]

الجميز: كان يتم وضعه فوق لدغ الثعابين والحيات. [3]

ورق شجر السنط: لعلاج الإسهال. [4]

الآداب والفنون

الشعر: ازدهرت أنواع كثيرة من الشعر:

الشعر باللغة العامية: مثال نموذج لشعر رجل كان يدعى (أبو الحسين الجزار) وكان يعمل جزارًا وكان غير راضٍ عن حرفته فأنشد هذه الأبيات.

حسبي حرافا حرفتي حسبي	أصبحت منها معذب القلب
أعمل في اللحم للعشا ولا	أنال منه العشا فما ذنبي[5]
الزكالش: حاكٍ يحكي عن أحداث وقعت	قم أمسك اللوز الأخضر وعانق الرمان[6]

المواليا: هي مواويل أي أغانٍ شعبية تُغنى عادة بلهجة عامية ويصاحبها الناي.

قصة

وتروى قصة عن احتفال أقيم بمناسبة عودة السلطان (العادل الثاني سيف الدين أبو بكر) (1239م) فتم تزيين القاهرة والفسطاط وأقيم احتفالًا كبيرًا تحت القلعة. فتم صنع قصور من الحلوى و أحواض مليئة بشراب السكر والليمون وتم ذبح (2500) خروف وحضر الاحتفال كل الناس من النبلاء والعامة.

(1) **الإفادة والاعتبار** (ص26).

(2) **المرجع السابق**، (ص64).

(3) **المرجع السابق**، (ص65).

(4) **المرجع السابق**، (ص76).

(5) **الطبقات الشعبية** (ص158).

(6) **طبقات العامة** (207).



زخارف جصية من العصر الأيوبي

مدح صلاحَ الدين الكثيرُ من الشعراء مثل:

- ابن الساعاتي السكندري.
- نثر للقاضي الفاضل ألقاه فرحة باستعادة صلاح الدين لبيت المقدس:

قام القاضي الفاضل بإلقاء النثر والشعر فرحًا باستعادة (صلاح الدين) بيت المقدس باعتبارها مناسبة سعيدة تفوق سعادتها الوصف وبشرى عظيمة. يقول القاضي الفاضل: «نصرنا الله بملائكته المسومين وأوليائه المؤمنين، وهذه موهبة مذهبة ومنقبة لا تبلغ إلى وصفها بلاغة موجزة ولا مسهبة. ونوبة ما بعدها للإسلام نبوة وحظوة في مذاق أهل التقوى والمغفرة حلوة وبشرى تجلو الوجوه ببشرها».

الألغاز: أسئلة تدعو المستمع للتفكير

القصص الشعبي: قصص ألف ليلة وليلة وسيرة صلاح الدين و قراقوش.

الحمام الزاجل

كان وسيلة مهمة لنقل البريد جوًّا عن طريق ربط الرسائل في أرجل الحمام الزاجل.

تعبيرات وصلت إلينا من العصر الأيوبي ومازالت مستخدمة

وصلت لنا تعبيرات كانت شائعة على ألسنة المصريين قي هذا العصر مثل:

فلان قاعد بينش: هو تعبير يدل على الفراغ وقلة العمل وهو يصف شخصًا يجلس متكاسلًا و ينش حشرة الذباب أي يبعدها عنه.

فلان قاعد يقشر بصل: هو تعبير يصف أيضًا البطالة وقلة العمل، فعندما يجف نهر النيل كان الأشخاص العاطلون يجمعون الأبصال التي تنبت في قاع النهر ويقومون بتقشيرها ويأكلونها. وإذا سأل أحد عنهم كان يقال «فلان قاعد في قاع النهر يقشر بصل».[1]

الأمثال الشعبية

هي أقوال انتشرت بين الناس تعبر عن عواطفهم وأحاسيسهم في مختلف الموضوعات.

- (**ليس كل بيضاء شحمة ولا كل سوداء فحمة ولا كل حمراء لحمة**) وهو مثال يحذر من الانخداع بالمظاهر.
- (**أنا أزرع الشجرة وغيري يجني الثمرة**) تتكلم عن إنسان يشعر أنه لا يستفيد من عمله.
- (**إذا طلع سعد السعود يجري الماء في العود ولانت الجلود وكره في الشمس القعود**) وهو نصيحة بعدم الجلوس في الشمس في شهر أمشير أي شهر فبراير.[2]

---

(1) **الإفادة والاعتبار** (ص25).

(2) **طبقات العامة** (212 - 214).

معتقدات العامة

اعتقد المصريون في العصر الأيوبي بمعتقدات خرافية:

- انتشرت الرقية بالبخور لمنع الحسد وكانت النساء تخفي أولادهن من النساء المعروفات بالحسد وأطلقوا على المرأة الحسود أن كعبها مدور. كما استخدموا التعاويذ والأحجبة لمنع الحسد عنهم.
- وقد استخدموا طاسة الخضة وهي إناء مصنوع من النحاس به قطع صغيرة من الحديد تُسمى مفاتيح عليها نقوش سحرية يعتقدون أنها تشفي المرضى. وقد أطلق عليها طاسة الخضة؛ لأنها كانت تستخدم في البداية لعلاج الأمراض العصبية ثم أصبحت تستخدم لبقية الأمراض. وكانت تملأ بالماء أو اللبن وتترك مكشوفة في الهواء لمدة ليلة كاملة وفي الصباح يشربها المريض لاعتقاده أنها تشفيه.[1]

النيل

انتقل مجرى النيل الرئيسي وشاطئه الشرقي نحو الغرب في العصر الأيوبي. وفي عام (1240) جف الفرع الشرقي للنهر حتى جفت المياه من حول جزيرة الروضة. وقد نفذ (الملك الكامل) (1231م) و(الملك الصالح) (1240م) مشروعات مهمة لإرجاع مياه النيل إلى فرع الروضة عند المقياس.[2]



جزيرة الفيل

ظهرت في زمن الدولة الأيوبية نتيجة غرق مركب كبير يُسمى الفيل في نهر النيل فترك مكانه وكساه الرمل حتى صار جزيرةسميت بجزيرة الفيل (الفجالة الآن) وانتشرت حولها البساتين وكانت تزرع عند انحسار الماء عنها.

جزيرة الروضة

كان يطلق عليها جزيرة المقياس في العصر الأيوبي نسبة لمقياس النيل وكان يوجد حولها البساتين والثمار ويخرج الناس للتنزه فيها. واستأجرها الملك (الصالح نجم الدين أيوب) وبنى بها قصرًا ومقرًا للحكم وبنى قلعة على بحر الروضة للماليك البحرية مساحتها (65) فدانًا وغرس فيها الأشجار.

ميدان الرميلة

هو الميدان الذي يقع تحت القلعة، قام بإنشائه (الخليفة أحمد بن طولون) في زمن الدولة الطولونية. وقد قام بإعادة بناء الميدان (الملك الكامل) في زمن الدولة الأيوبية وحفر بجواره ثلاث برك لتوفير المياه. واهتم (الملك الصالح نجم الدين أيوب) بالميدان وجدد الساقية التي ترفع إليه الماء وغرس به الأشجار.[3]

(1) طبقات العامة (ص201-200).

(2) القاهرة تاريخ حاضره (ص95).

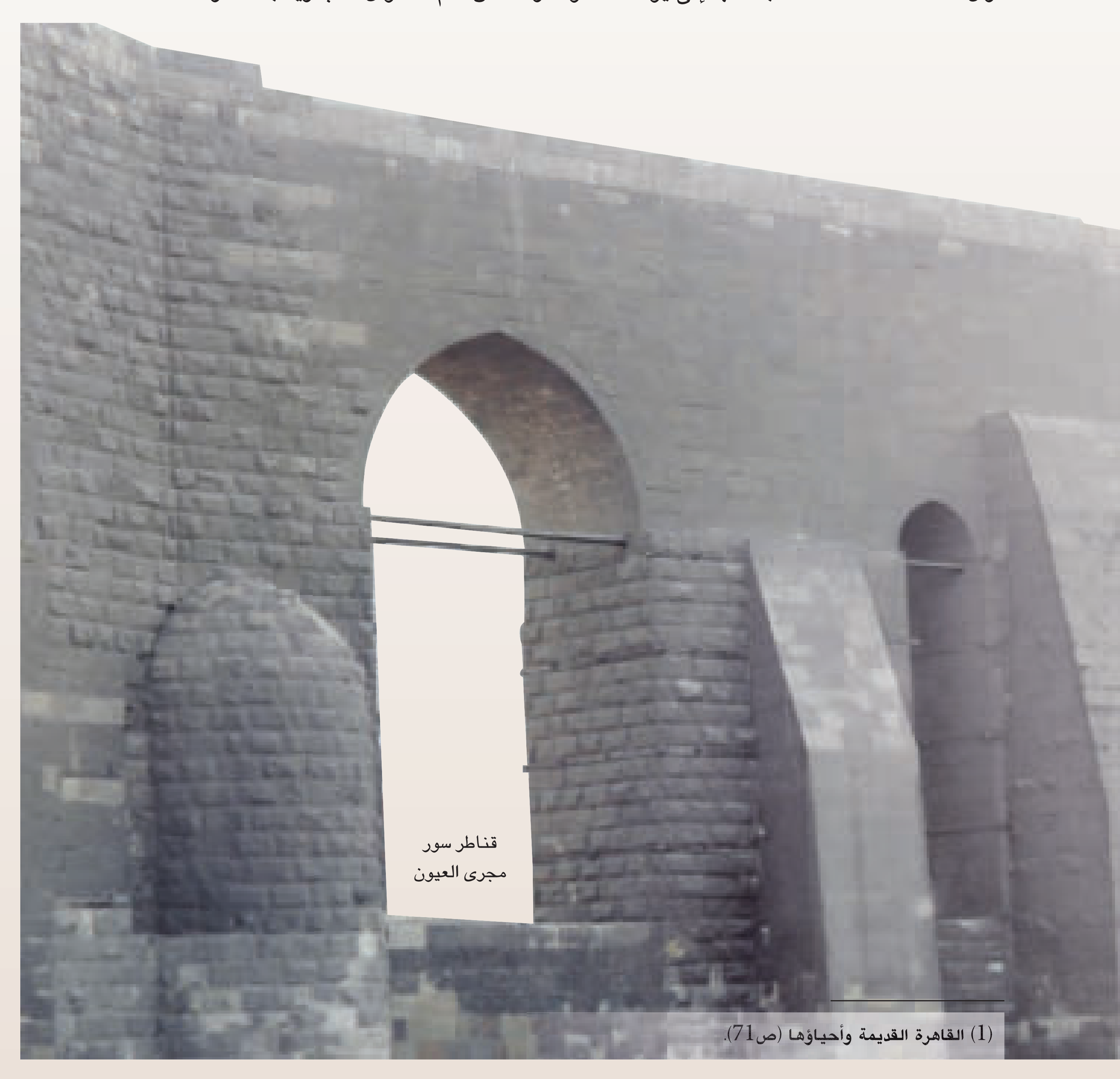
(3) الخطط المقريزية (ص371).

العواصم القديمة

بنى (عمرو بن العاص) الفسطاط بعد فتح مصر وجعلها مقرًا لإمارته، وفي العصر العباسي بنى قائد جيش العباسيين (أبوعوف) مدينة العسكر شمالي الفسطاط حيث نزلت عساكره وسكنها أكثر ولاة بني عباس، بنى (أحمد بن طولون) القطائع كعاصمة لدولته وبنى (المعز لدين الله الفاطمي) القاهرة.

حي الموسكي

في عهد (صلاح الدين الأيوبي) أنشأ الأمير (عز الدين موسك) قنطرة على الخليج عرفت باسمه (قنطرة الموسكي). ومنذ ذلك الوقت بدأ العمران في هذه المنطقة ،وأنشئت بها الأسواق والدكاكين وأطلق على المنطقة حي الموسكي. ولا تزال هذه المنطقة محتفظة باسمها إلى يومنا هذا وما زالت من أهم الأسواق التجارية بالقاهرة.[1]



قناطر سور
مجرى العيون

(1) القاهرة القديمة وأحياؤها (ص71).

عظمة صلاح الدين

قال عنه المقربون منه «إن المتقرب منه لا يستطيع إلا أن يحس بحب له ممزوج بهيبة. كان في حياته الخاصة يجلس مع أولاده ويداعبهم ويضحك معهم و كان يعطف على كل الناس بدون استثناء بغض النظر عن جنسهم أو لونهم ويكلم الناس بوداعة وتواضع، وكان يلبس الثياب البسيطة ويحب حياة الصوفية. كان حسن الخلق مع القوي والضعيف، كريما ينفق على الفقراء، متدينًا مواظبًا على الصلاة والصيام والنوافل وللأسف لم يستطع القيام بفريضة الحج لانشغاله المتواصل بالحروب. كان رجل سياسة وحرب من الدرجة الأولى يرسم الخطط ويدافع عن الإسلام وكان عاقلًا ذكيًّا. كان صلاح الدين قائدًا عظيمًا عطوفًا على جنوده، رحيمًا بأعدائه فأحبه أعداؤه قبل أصدقائه ولم يكن في نفسه حقد أو حب للانتقام. كان عادلًا لا يرضى بالظلم أبدًا وأصبح اسمه رمزًا للجهاد ولرفع راية الإسلام وكلمة الله عالية.

وقد توفي صلاح الدين وعمره سبع وخمسون سنة وترك ذكرى عطرة وسيرة مشرفة. و لم يجدوا في خزانته بعد وفاته إلا (47) درهمًا فقد صرف كل أمواله على الفقراء وعلى الجهاد. ويصف القاضي (ابن شداد) يوم موته فيقول:

«وكان يومًا لم يصب الإسلام والمسلمون بمثله منذ فقدوا الخلفاء الراشدين وغشي القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ما لا يعلمه إلا الله تعالى.»[1]

قصة

عند فتح بيت المقدس رأى صلاح الدين عددا من الفرنج يحمل كل منهم على ظهره والديه المسنين أو المرضى الذين لا يقوون على المشي. تأثر صلاح الدين من هذا المنظر فوزع عليهم الأموال و الدواب لحمل أهلهم.



مرضه

ويروي القاضي (ابن شداد) أنه ذهب هو و(القاضي الفاضل) لزيارة صلاح الدين وهو مريض مرض الموت فيقول: «ولقد جلسنا في سادس منصة وأسندنا ظهره إلى مخدة وأحضرنا ماءً فاترًا ليشرب عُقيب شرب دواء لتليين الطبيعة فشربه فوجده شديد الحرارة فشكا من شدة حرارته وعرض عليه ماءً ثانيًا فشكا من برده ولم يغضب ولم يصخب ولم يقل سوى هذه الكلمات (سبحان الله ألا يمكن أحد تعديل الماء).»
وهذه القصة تدل على حلمه وكرم أخلاقه.[2]

كرم أخلاق صلاح الدين

كان حسن العشرة، كريم الأخلاق، يفي بوعده و لا يذكر أحدًا إلا بخير ولم يؤذِ مسلمًا قط بيده ولا بلسانه. وكان يكرم ضيفه ويقول عنه (القاضي ابن شداد): «ولقد كان السلطان كثير المروءة، ندي اليد، كثير الحياء، مبسوط الوجه لمن يرد عليه من الضيوف، لا يرى أن يفارقه الضيف حتى يطعم عنده، ولا يخاطبه بشيء إلا وينجزه.»[3]

(1) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (247).
(2) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (243).
(3) المرجع السابق، (ص30).

عدل صلاح الدين

كان حريصًا على نشر العدل بين الناس فكان يجلس كل يوم إثنين وخميس في مجلس عام يقابل فيه الناس ويرد لهم مظالمهم. وكان يحضر هذا المجلس الفقهاء والقضاة ولم يكن يرد أبدًا طالب حاجة وما استغاث به إنسان قط إلا ووقف ليسمع له.[1]

تواضعه

يُروى عن صلاح الدين أنه عندما يأتي وقت الطعام وهو على دابته كان ينزل من فوقها ويمد الطعام ويأكل مع الناس.[2] وعندما كان عماله يبنون حصنًا في القدس نزل من على دابته وأخذ ينقل الحجارة مع العمال بنفسه.

كرمه

قيل عنه إنه كان شديد الكرم يعطي الكثير للفقراء والمحتاجين وإذا علم أن في خزائنه مالًا لا يستطيع أن يرتاح أو أن ينام قبل أن يتصدق بقدر كبير منه. وكان يعطي في وقت الضيق كما يُعطي في وقت السعة.[3]

رحمته مع أعدائه

وتروى قصة أخرى عنه أن بعض اللصوص دخلوا ليلًا إلى خيام الفرنجة بغرض السرقة أثناء حصار عكا فسرقوا طفلة رضيعة كانت نائمة. فحزنت عليها أمها حزنًا شديدًا ولجأت إلى أمراء الصليبيين فقالوا لها إن قائد المسلمين رحيم القلب وطلبوا منها أن تستعين به؛ فذهبت إلى صلاح الدين وطلبت منه مساعدتها فبحثوا عن الطفلة فوجدوها قد بيعت في سوق الرقيق. دفع صلاح الدين ثمن الطفلة إلى المشتري وسلمها إلى أمها وأعادها إلى قومها قريرة العين.[4] وقال لها صلاح الدين: «نحن لم نفعل أيتها السيدة إلا ما أمرنا به ديننا الحنيف.» فقالت له: «هل يأمركم دينكم يا مولاي بالرحمة والعطف على الأعداء ومساعدة المنكوبين والضعفاء وفك الكرب على من أصابتهم الشدة؟» فرد صلاح الدين: «نعم، فالإسلام هو رحمة للناس جميعًا وسلام لكل الشعوب.»



صورة حديثة لسور قلعة صلاح الدين

(1) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (ص13).

(2) المرجع السابق، (ص28).

(3) المرجع السابق، (ص17).

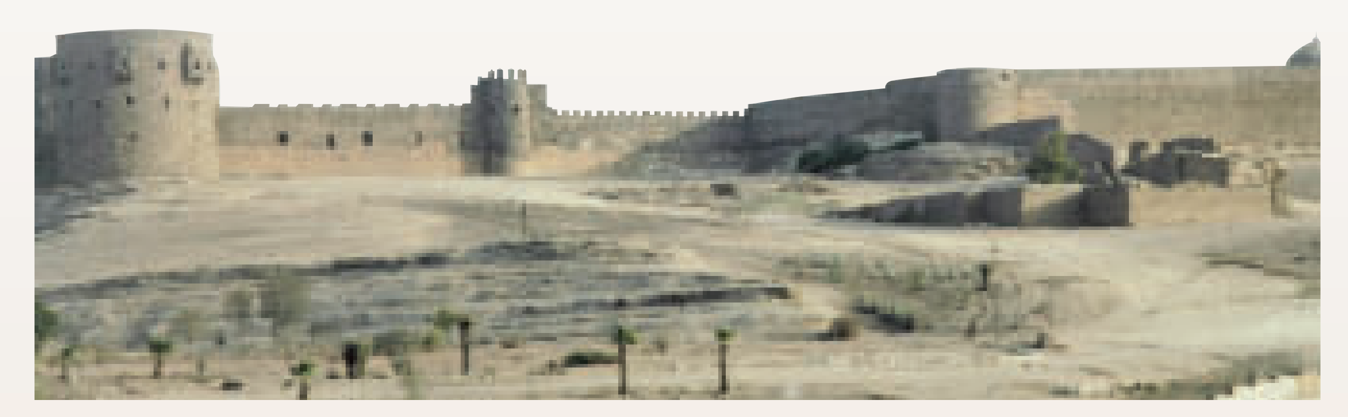
(4) موسوعة التاريخ الإسلامي (ص33).

صبره

كان صلاح الدين يقضي الشهور الطويلة في ساحه القتال وهو بعيد عن أهله وأولاده وهو راضٍ وصابر. وكان لصلاح الدين ابن يدعى إسماعيل جاءه خبر وفاته فبكى في صمت ولم ينقل الخبر لمن حوله حتى لا يحزنوا عليه وصبر واحتسب الأجر عند الله.(1)

حلمه

تروى قصة أنه مر عليه قاضٍ يدعى (ابن شداد) ممتطيًا بغلته في يوم ممطر شديد الوحل. فجاء الطين فوق ثياب صلاح الدين وأتلفها فانزعج القاضي ولكن صلاح الدين لم يغضب بل قرَّب القاضي منه وابتسم له حتى يُزيل ما في نفسه من خجل.(2)



خلفاء صلاح الدين

الملك العزيز بالله

هو (الملك العزيز بالله عماد الدين أبو الفتح عثمان بن الملك الناصر صلاح الدين) هو ابن (صلاح الدين الأيوبي) وقد منحه الخليفة العباسي لقب ظهير أمير المؤمنين. تولى عمه الملك العادل تدبير أمور المملكة، وقد وقع عداء بين العزيز وبين أخيه الأكبر الأفضل الذي كان يلي أمر الشام، فعزله العزيز بالله عن حكم الشام وعين العادل حاكمًا عليها. وقد أعاد المكوس التي ألغاها صلاح الدين، اضطربت الأحوال في حكمه؛ بسبب انخفاض مستوى النيل وحدوث جفاف، فقلت الغلال، وازدادت الأسعار. وقد توفي الملك العزيز في حادثة صيد بعد أن تولى الحكم لمدة سبع سنوات.

الملك المنصور

هو (الملك المنصور محمد بن الملك العزيز عثمان بن الملك الناصر صلاح الدين) تولى الحكم وهو طفل عمره عشر سنوات فكان الأتابك (بهاء الدين قراقوش) وصيًّا عليه. رفض الأمراء جلوسه على العرش وأحضروا أخاه الملك الأفضل فحكم بدلًا منه، وكان حكم المنصور اسميًّا فقط. حاول الأفضل أن يأخذ دمشق من عمه الملك العادل ولكن العادل هزمه ودخل القاهرة وعزله عن الحكم بعد سنة وثمانية أشهر. وقد ساد الغلاء في حكمه بسبب انخفاض منسوب النيل.

(1) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (26).

(2) المرجع السابق (29).

الملك العادل سيف الدين أبو بكر

هو (الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن الأمير نجم الدين أيوب) هو أخو صلاح الدين، ومنحه الخليفة العباسي لقب خليل أمير المؤمنين. صار العادل سلطانًا على مصر والشام وحران والرها وكان صبورًا، قويًّا، محبًّا للغزو في سبيل الله. وقد حدثت مجاعة في عصره نتيجة لانخفاض منسوب النيل لمدة ثلاث سنوات فحدث جفاف وغلت الأسعار غلوًّا شديدًا. كماعادت الحرب بين المسلمين والصليبين بعد نقض الهدنة التي كانت بين العادل و(عموري الثاني) ملك بيت المقدس فهاجم الصليبيون مصر لأنها قلب العالم الإسلامي وقدمت قوات الصليبيين البرية والبحرية إلى مدينة دمياط (1218م) فخرج الملك الكامل بن الملك العادل لمحاربتهم بعد وفاة والده. وقد توفي العادل بعد تسعة عشر عامًا من الحكم.

الغلاء

وقع غلاء شديد في أيام سلطنة العادل أبي بكر بن أيوب بسبب انخفاض منسوب النيل إلى (13) ذراعًا (1201م) وسادت الأوبئة وكثر الموتى وقل الزرع وبلغ سعر أردب القمح (تقريبا مائه كيلو) ثمانية دنانير وأخذ العادل يوزع الغلال على الفقراء. مات في هذه الأزمة حوالي (22,000) شخص حتى قيل أن القرى التي كان عدد سكانها (500) فرد وصل عدد سكانها بعد الأزمة لثلاثة أو أربعة أشخاص فقط لا غير. وكان الناس يتساقطون في الطرق من الجوع وأكلوا الجمال والقطط والحمير.[1] ويصف الرحالة (عبد اللطيف البغدادي) هذه المجاعة: «ودخلت سنة سبع مفترسة أسباب الحياة، وقد يئس الناس من زيادة النيل، وارتفعت الأسعار وأقحطت البلاد، وأشعر أهلها البلاء.»[2]

السلطان الكامل محمود بن العادل

هو (الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل) تولى بعد أبيه العادل في ظروف صعبة حيث استولى الصليبيون على دمياط وقد حكم مدة أربعين سنة وكان كثير الغزوات يحب الجهاد. تقدمت مصر في عهده كثيرًا بسبب الإصلاحات التي قام بها لتحسين الري والزراعة. وقد أتم بناء قلعة صلاح الدين وهو أول ملك أيوبي يقيم في القلعة وشيد فيها قصور للسلطنة. وكان محبًّا للعلم والعلماء، بنى مدرسته الكاملية وأنشأ قبة على ضريح الإمام الشافعي. أول عمل قام به الملك الكامل هو محاربة الصليبيين وتحرير دمياط منهم.ثم توقف القتال وعقدت هدنة بين الطرفين ثم عاد القتال وانتصر المسلمون في مكان (المنصورة اليوم) وطلب الصليبيون الصلح وتركوا دمياط. منحه الخليفة العباسي لقب معين أمير المؤمنين، وقد توفي الكامل بعد عشرين عامًا من الحكم.

مئذنة ضريح
الإمام الشافعي

(1) بدائع الزهور (ص93).

(2) تاريخ الخطط المقريزية، (ص144).



جزء من سور مجرى العيون

المنصورة

هاجم الفرنج ثغر دمياط بعدد مائتي مركب واستولوا على مدينة دمياط. فخرج (الملك الكامل) من القاهرة ومعه جيش مكون من 20,000 مقاتل وحاصر الفرنج في دمياط. ولما طالت مدة الحصار أنشأ الملك الكامل قرية وسماها (المنصورة) وبنى بها الحمامات والأسواق والفنادق ليقيم بها هو وجيوشه. ثم جاء مدد كبير من الجيوش إلى الملك الكامل فأيقن الفرنج أنهم سوف يهزمون فطلبوا الرحيل إلى بلادهم في سلام.[1]

تنازله عن بيت المقدس

وقع خلاف شديد بين (الملك الكامل) وأخويه (المعظم عيسى) و(الأشرف موسى) على السلطة فاستغاث الكامل بالصليبيين ليساعدوه ضد أخيه (المعظم عيسى) مقابل إعطائهم بيت المقدس. فجاء (فردريك الثاني) إمبراطور الدولة البيزنطية ليساعد الكامل وأخذ بيت المقدس وعقد اتفاقًا مع الكامل (1229م) تقرر فيه المصالحة بين المسلمين والصليبيين لمدة عشر سنوات على أن يأخذ الصليبيون بيت المقدس وبيت لحم والناصرة. وكانت صدمة المسلمين شديدة في كل البلاد وسخطوا على (الملك الكامل) بسبب تنازله عن بيت المقدس بدون قتال.[2]

(1) بدائع الزهور، (ص98).

(2) في تاريخ الأيوبيين، (ص119).

السلطان العادل الثاني سيف الدين أبو بكر

كان عمره اثني عشرة عاما حين تولى الحكم وقد انشغل باللهو عن الحكم. وكان أخوه الأكبر (نجم الدين أيوب) أحق منه بالسلطة وكان نائبًا لأبيه على الشرق. لم يرض نجم الدين بحكم العادل وسار إلى مصر واستولى عليها وخلع العادل بعد سنتين.

قصة

كان الملك الكامل يحب منطقة العباسية ويقول (هذه أحسن من مصر فإني إذا أقمت بها أصطاد الطير من السماء والسمك من الماء والوحش من الفضاء ويصل إليَّ خبر القاهرة في يومه مع النجباء كل يوم مرتين) وقد أنشأ بها البساتين والمنازل.[1]

الصالح نجم الدين أيوب

(الصالح نجم الدين أيوب ابن السلطان الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل). كان من أحسن سلاطين بني أيوب أقام عدة مدارس لتعليم الإسلام على المذاهب الأربعة، جمع الكثير من المماليك البحرية وجعل منهم قوة عظمى[2]. بنى قلعة الروضة لتكون مقرًّا للحكم وبالغ في زخرفتها وأقام بها هو وأسرته ومماليكه وغرس فيها جميع أنواع الأشجار. وقد تزوج من إحدى جواريه (شجر الدر) وأصبحت بعد موته ملكة على مصر. فرض حمايته على مكة واليمن. استرد بيت المقدس من الصليبيين (1244م) وهزم الصليبيين بعدها في معركة غزة وأخذ القدس والخليل ودمشق.

قصة

استكثر (الصالح نجم الدين أيوب) من شراء المماليك الترك وأقاموا في معسكرات في جزيرة الروضة بجوار قصره. وبعد وفاه (الصالح نجم الدين أيوب) (1249م) ثم مقتل ابنه (توران شاه) استولى هؤلاء المماليك على حكم مصر.[3]

الملك المعظم توران شاه

وصل توران شاه إلى مصر قادمًا من الشام بعد موت أبيه وقد تولى الحكم وعمره (25) عامًا. وقد أعلن موت أبيه للناس عندما وصل إلى مدينة الصالحية وحشد جيشًا وذهب لملاقاه الصليبيين.

موقعة المنصورة

وتقاتل (المماليك) مع الفرنج في (موقعة المنصورة) واستخدموا السيوف والرماح والنشاب وهي عبارة عن (خشبة طويلة تنتهي بسن مثلث والمقاليع وهي (عصيان غليظة من الخشب) وقتل عدد كبير من الطرفين في المعركة وهرب الصليبيون بعد أن هزموا هزيمة منكرة وأسر قائدهم (لويس التاسع) في دار القاضي (ابن لقمان).و بعد انتهاء المعركة تآمر المماليك البحرية على(توران شاه) وقتلوه (1250م).[4] وبمقتله انتهت الدولة الأيوبية وبدأ عصر المماليك البحرية.

ويصف لنا ابن إياس هذه المعركة: «فكانت ساعة تشيب منها النواصي وقد تاب من هول ذلك اليوم العاصي فانكسر الإفرنج أبخس كسرة وولوا مدبرين والله تعالى ناصر الناصرين، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم.»[5]

---

(1) بدائع الزهور (ص102).

(2) بدائع الزهور (ص95).

(3) بدائع الزهور (ص102).

(4) بدائع الزهور (ص105).

(5) بدائع الزهور (ص105).

ذات الحجاب المنيع الملكة شجر الدر

هي (الملكة شجر الدر بنت عبد الله) هي أول امرأة تحكم في تاريخ مصر الإسلامية. هي زوجه (الصالح نجم الدين أيوب) وأم ولده خليل تولت الحكم بعد مقتل (توران شاه). وقد خطب باسمها على المنابر ونقش اسمها على الدنانير، كانت جميلة قوية وذكية، أظهرت في حكم مصر كفاءة وحسن تدبير للأمور. وقد أطلق عليها عده ألقاب مثل عصمة الدولة، الستر العالي وأم خليل. ولما علم الخليفة العباسي (المستعصم بالله) بالأمر غضب غضبًا شديدًا واستنكر تولي



امرأة الحكم وطلب الرجوع عن ذلك. فلما علمت (شجر الدر) بموقف الخليفة العباسي تزوجت المملوك (عز الدين أيبك) وخلعت نفسها بعد 80 يومًا من حكم مصر وتنازلت له عن الحكم.

ويصف لنا ابن إياس دعاء الخطباء للملكة (شجر الدر) على المنابر فيقول: فلما كان يوم الجمعة خطب باسم (شجر الدر) على منابر فكانت الخطباء تقول بعد الدعاء للخليفة: «واحفظ اللهم الجبهة الصالحية، ملكة المسلمين، عصمة الدنيا والدين، ذات الحجاب الجميل، والستر الجليل، والده المرحوم خليل، زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب.»[1]

الملك الأشرف الثاني مظفر الدين موسى

تولى وعمره ثماني سنوات وعزله المظفر قطز.

سلاطين الأيوبيين

الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي يوسف	(1169م-1174م)
الملك العزيز عماد الدين عثمان	(1193م)
الملك المنصور محمد بن ناصر الدين	(1198م)
الملك العادل الأول سيف الدين أبو بكر	(1200م)
الملك الكامل الأول ناصر الدين محمد	(1218م)
الملك العادل الثاني سيف الدين أبو بكر	(1238م)
الملك الصالح نجم الدين أيوب	(1240م)
الملك المعظم توران شاه	(1249م)
الملكة شجر الدر زوجة الصالح نجم الدين أيوب	(1250م)
الملك الأشرف الثاني مظفر الدين	(1250م)

(1) بدائع الزهور (ص109).

إنجازات صلاح الدين الأيوبي

وحد (صلاح الدين الأيوبي) صفوف وكلمة المسلمين وحقق انتصارات حربية عظيمة على الصليبيين واسترد بيت المقدس. وأصبح صلاح الدين رمزًا للجهاد وقضى على المذهب الشيعي بمصر وأعاد الفكر السني. بنى صلاح الدين وخلفاؤه الكثير من المدارس فازدهر التعليم وقامت نهضة في علوم الحديث والفقة الإسلامي كما نشر المذهب الشافعي ووفد الكثير من العلماء إلى مصر. بنى صلاح الدين قلعة الجبل كحصن ومقر للسلطنة وبنى أسوارا تحيط بالقلعة والقاهرة. أعاد صلاح الدين سيادة الدولة العباسية على مصر وأنشأ الخانقاوات واستقدم الصوفية وشجع الفكر الصوفى. وقد وضع صلاح الدين أساس القاهرة الكبرى بعد أن ضم العواصم الأربع القديمة (الفسطاط والعسكر والقطائع والقاهرة) في مدينة واحدة.

سمات العمارة الأيوبية

كانت الدولة الأيوبية دولة فتوحات وجهاد وكانت أكثر عمارة الدولة الأيوبية القلاع والحصون الحربية.

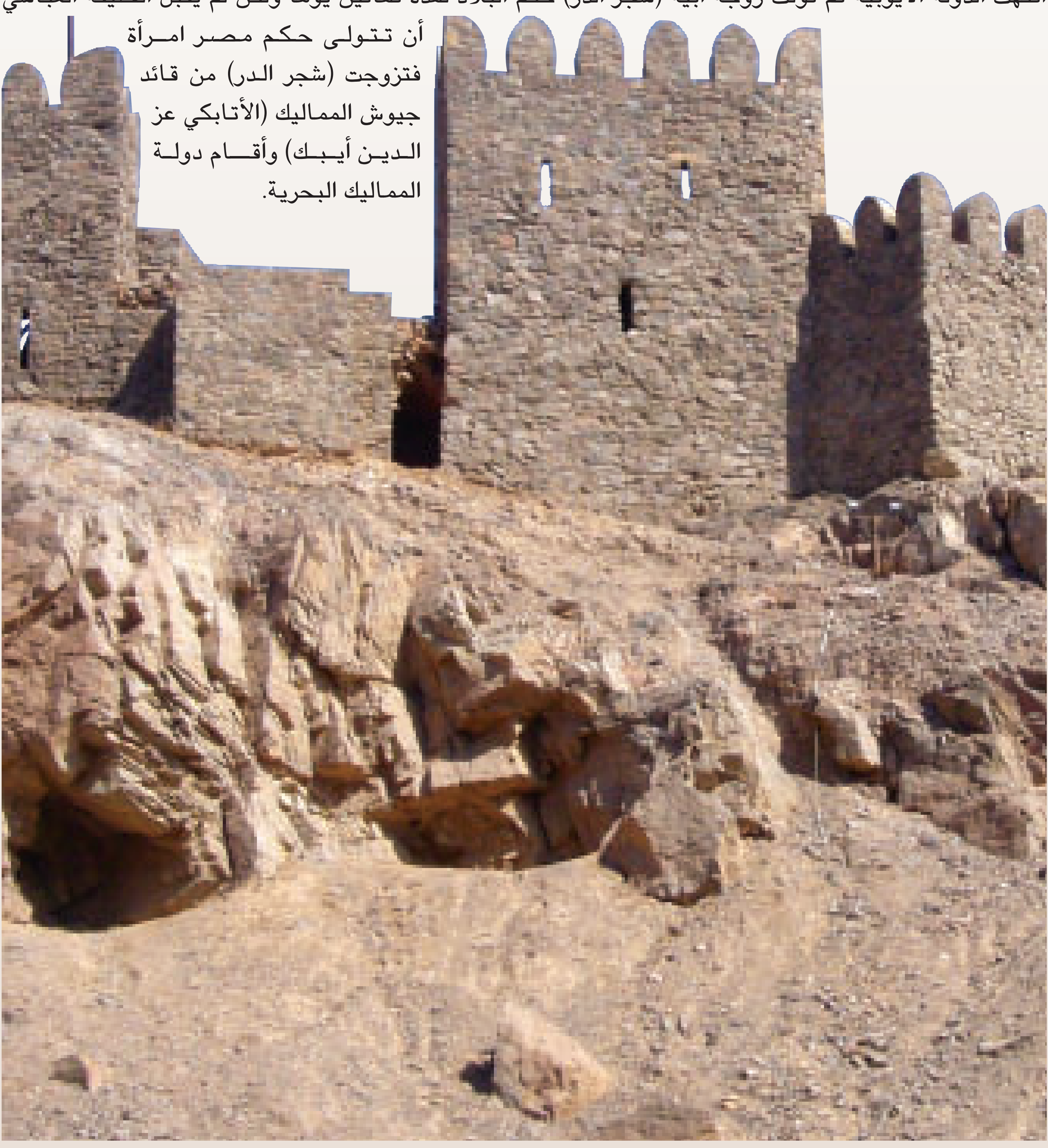
- تطورت المئذنة في الطراز الأيوبي وأخذت شكلًا يعرف بالمبخرة.
- تطورت القبة وظهرت القبة الكبيرة وتعددت فيها أشكال المقرنصات.
- بنى الإيوان فوق القبور بدلًا من القباب.
- ظهر بناء الخوانق لإقامة الصوفية.
- استجدت أساليب زخرفية مثل استخدام الرخام في المحاريب واستخدام الفسيفساء.
- استخدام الخط النسخ.



المدرسة الصالحية إلى اليسار،
ويلاحظ تأثرها بالعمارة المملوكية

نهاية الدولة الأيوبية

توفي الملك (الصالح نجم الدين أيوب) (1249م) أثناء حربه مع الصليبيين في المنصورة، وقد أخفت أمر موته زوجته (شجر الدر) وكانت توقع بتوقيعه على المراسيم. بعثت (شجر الدر) لابن زوجها الذي كان في الجزيرة وطلبت منه الحضور فورًا لتولي الحكم. وصل توران شاه إلى مصر وتولى السلطنة وأعلن موت أبيه للناس ثم سار إلى المنصورة لمحاربة الصليبيين. حاول (لويس التاسع) ملك فرنسا طلب الصلح ولكن (توران شاه) رفض وتحارب معه عند فارسكور في موقعة المنصورة وهزمه هزيمة منكرة وأسر (لويس التاسع) وسجنه في دار(القاضي ابن لقمان). و بعد الاحتفال بالنصر اختلف (توران شاه) مع المماليك البحرية فقتلوه (1250م) بعد سبعين يومًا فقط من الحكم.و بموته انتهت الدولة الأيوبية ثم تولت زوجة أبيه (شجر الدر) حكم البلاد لمدة ثمانين يومًا ولكن لم يقبل الخليفة العباسي أن تتولى حكم مصر امرأة فتزوجت (شجر الدر) من قائد جيوش المماليك (الأتابكي عز الدين أيبك) وأقام دولة المماليك البحرية.



المراجع

1. الإمام العالم تقي الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد المقريزي: الخطط المقريزية، مكتبة الآداب 1996.
2. ابن تغري بردي: اختصار وتقديم محمد الفيل، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب 2007.
3. د. أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، مكتبة النهضة 1999.
4. د. أحمد فؤاد سيد، تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب، مكتبة مدبولي 2002.
5. أندريه ريمون، ترجمة لطيف فرج، القاهره تاريخ حاضرة، دار الفكر 1993.
6. أولج فولكاف، ترجمة أحمد صليحة، القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1986.
7. د. خالد عزب، أسوار وقلعة صلاح الدين، مكتبة زهراء الشرق 2006.
8. د. دولت عبد الله، معاهدة تزكية النفوس في مصر، مطبعة حسان 1980.
9. د.سعاد ماهر، القاهرة القديمة وأحياؤها، المؤسسة المصرية العامة 1962.
10. عبد الله الشرقاوي، تحقيق وتعليق رحاب عبد الحميد القاري، تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الملوك والسلاطين، مكتبة مدبولي – 1996.
11. عبد اللطيف البغدادي، إشراف: د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ، كتاب الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب – 1998.
12. د. قاسم عبده قاسم، تاريخ الأيوبيين والمماليك، مطبعة الصحوة 2007.
13. محمد فريد أبو حديد، صلاح الدين الأيوبي وعصره، الهيئة المصرية العامة للكتاب 2002.
14. محمد بن أحمد بن إياس الحنفي المصري، بدائع الزهور في وقائع الدهور، مكتبة مدبولي 2005.
15. يوسف بن رافع بن تميم الأسدي الموصلي أبو المحاسن بهاء الدين، المشهور بابن شداد، تحقيق: د.جمال الدين الشيال، سيرة السلطان صلاح الدين الأيوبي، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، الهيئة العامة لقصور الثقافة 2002.

